

الوارث
توزّع مجاناً
جمادي الأولى ١٤٣٢ هـ
نيسان ٢٠١١م
نشرة شهرية دينية ثقافية تصدر عن
شعبة الدراسات والبحوث الإسلامية
في العتبة الحسينية المقدسة
السلام عليك يا مصباح الضياء
السلام عليك يا زين الموحدين النجباء
السلام على من خصه النبي بجزيل الحباء
السلام عليك يا عماد الأتقياء
السلام على من ولد في الكعبة
السلام عليك يا صاحب الحوض وحامل اللواء
السلام عليك يابحر العلوم وكنف الفقراء
السَّلام على من وُلد في الكعبة
السلام عليك يا صاحب الحوض وحامل اللواء ، السلام عليك يا قسيم الجنة ولظى
السلام عليك يا من ولد في الكعبة وزوج في السماء بسيدة النساء



صفحات الوارث

www.imamhussain.org

www.imamhussain-lib.org

Info@imamhussain-lib.org

الكعبة لا تزين علياً عليه السلام

عندما يتأمل المحب لعلي أمير المؤمنين عليه السلام ما ورد عن ولادته في الكعبة المشرفة يلمس حرصاً من فريق يريد أن يجعل الولادة في الكعبة فضيلة يرفع بها علياً عليه السلام، وفريق آخر يحاول طمس هذه الفضيلة بطريقة وأخرى، فتارة يكذب الرواية وأخرى يجعل لها مثيلاً مع غيره، وثالثة يفسرها بأنها لا تعد فضيلة وان وقعت، وغير ذلك من المحاولات.

ولكي نقف على ما هو الحق، نقول:

إن علياً سيد الأوصياء وحجة الله تعالى وخليفة الرسول الأكرم وزوج البتول وأبو السبطين وإمام المتقين وسيد البلغاء المتكلمين وقائد الغر المحجلين ويعسوب الدين ومفترض الطاعة وباب مدينة العلم وهارون الأمة والأقضى والأعلم والأشجع بعد أخيه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

و... و.. إلى أن تنتهي الأوراق وتكل الأقلام عن ذكر فضائله، فكيف يستطيع المبغض أن يطمس هذه الشخصية الإلهية؟ ولمَ يخاف المحب أن تتزعزع منزلة علي عليه السلام ومرتبته؟

فإذا عرفت ذلك فأعلم: أن الله تعالى جعل ولادة علي عليه السلام في الكعبة، لأنه علم منه أنه سيكون عبداً كما يحب مولاه تعالى ويكون أسوة وقدوة كما يريده سبحانه، ويؤدي دوره كحجة، ووظيفته كإمام للناس على ما أراد جل وعلا.. أفبعد كل هذا تكون الولادة في الكعبة هي من يرفع علياً عليه السلام أم ما له من الخصال والصفات وما عليه من العبودية لله تعالى؟

أوليس هو القائل «كفاني فخراً أن أكون لك عبداً وكفاني زهواً أن تكون لي رباً، فأنت كما أحب فاجعلني كما تحب»؟ فلا أقول جديداً إذا قلت إن علياً عليه السلام هو من زين الكعبة وليست الكعبة هي من زينت علياً عليه السلام، وهذا ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة» فكيف إذا كان علياً أمير المؤمنين عليه السلام؟!.

المشرف العام



الحسين عليه السلام يتهيأ للخروج من المدينة



عن جابر بن عبد الله قال: لما عزم الحسين بن علي عليهما السلام على الخروج إلى العراق أتيته فقلت له: أنت ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأحد سبطيه، لا أرى إلا أنك تصالح كما صالح أخوك عليه السلام، فإنه كان موفّقا رشيداً.

فقال لي:

(يا جابر قد فعل أخي ذلك بأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأنا أيضاً أفعل بأمر الله تعالى ورسوله، أتريد أن استشهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليا وأخي الحسن عليهما السلام بذلك الآن).

ثم نظر إلى السماء فإذا السماء قد انفتح بابها وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي والحسن وحمزة وجعفر عليهم السلام وزيد ابن عمّنا، وهم نازلون منها حتى استقروا على الأرض، فوثبت فزعاً مرعوباً، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(يا جابر ألم أقل لك في أمر الحسن قبل الحسين، لا تكون مؤمناً حتى تكون لأئمتك مسلماً، ولا تكون معترضاً، أتريد أن ترى مقعد معاوية ومقعد الحسين ابني ومقعد يزيد قاتله)؟

قلت: بلى يا رسول الله.

فضرب برجله الأرض فانشقت وظهر بحر فانفلق، ثم ظهرت أرض فانشقت هكذا انشقت سبع أرضين وانفلقت سبعة أبحر، ورأيت من تحت ذلك كلّه النار قد قرنت في سلسلة الوليد بن مغيرة وأبو جهل ومعاوية ويزيد وقرن بهم مردة الشياطين، فهم أشد أهل النار عذابا.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

(أرفع رأسك).

فرفعت فإذا أبواب السماء مفتّحة وإذا الجنة أعلاها، ثم صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه إلى السماء، فلما صار في الهواء صاح بالحسين:

(يا بني الحقني).

فلحقه الحسين وصعدوا حتى رأيتهم دخلوا الجنة من أعلاها، ثم نظر إليّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هناك وقبض على يد الحسين عليه السلام وقال:

(يا جابر هذا ولدي معي ها هو هنا،

فسلم له أمره ولا تشك فتكون مؤمناً).

قال جابر: فعميت عيناي إن لم أكن رأيت ما قلت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كلامه عليه السلام مع نساء بني هاشم قبل الخروج

قال ابن قولويه: حدّثني أبي وجماعة مشايخي عن سعد بن عبد الله بن أبي خلف، عن محمد بن يحيى المعاذي، قال: حدثني الحسين بن موسى الأصم، عن عمرو بن شمر الجعفي، عن جابر بن يزيد الجعفي، عن محمد بن علي عليهما السلام قال:

(لما همّ الحسين عليه السلام بالشخوص عن المدينة، أقبلت نساء بني عبد المطلب فاجتمعن للنياحة حتى مشى فيهن الحسين عليه السلام فقال: (أنشدكن الله أن تبدين هذا الأمر معصية لله ولرسوله).

قالت له نساء بني عبد المطلب: فلمن نستبقي هذه النياحة والبكاء، فهو عندنا كيوم مات فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام وفاطمة عليها السلام ورقية وزينب وأم كلثوم، فننشدك الله جعلنا الله فداك من الموت فيا حبيب الأبرار من أهل القبور.

ثم إن نساء بني هاشم أقبلن إلى أم هاني عمة الحسين عليه السلام وقلن لها: يا أم هاني أنت جالسة والحسين عليه السلام مع عياله عازم على الخروج، فأقبلت أم هاني فلما رآها الحسين عليه السلام قال:

(أما هذه عمتي أم هاني)؟

قيل: نعم، فقال:

(يا عمة ما الذي جاء بك وأنت على هذه الحالة).

فقالت: وكيف لا آتي وقد بلغني أن كفيل الأرامل ذاهب عني، ثم أنها انتحبت باكية وتمثلت بأبيات أبيها أبي طالب عليه السلام.

وابيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطوف به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

ثم قالت: سيدي وأنا متطيرة عليك من هذا المسير لهاتف سمعت البارحة يقول:

وإنّ قتيل الطف من آل هاشم
اذلّ رقابا من قريش فذلّت
حبيب رسول الله لم يك فاحشاً
ابانت مصيبته الأنوف وخلّت

فقال لها الحسين عليه السلام:

(يا عمة لا تقولي من قريش ولكن قولي (أذل رقاب المسلمين فذلت)، ثم قال: (يا عمة كل الذي مقدر فهو كائن لا محالة)، وقال عليه السلام:

وما هم بقوم يغلبون ابن غالب
ولكن بعلم الغيب قد قدر الأمر

فخرجت أم هاني من عنده باكية وهي تقول:

وما أم هاني وحدها ساء حالها
خروج حسين عن مدينة جده
ولكنما القبر الشريف ومن به
ومنبره يبكون من أجل فقده.

كتابه عليه السلام إلى بني هاشم

أيوب بن نوح، عن صفوان، عن مروان ابن إسماعيل، عن حمزة بن حمران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكرنا خروج الحسين عليه السلام وتخلّف ابن الحنفية، فقال أبو عبد الله عليه السلام:

(يا حمزة إني سأخبرك بحديث لا تسأل عنه بعد مجلسك هذا، إن الحسين عليه السلام لما فصل متوجّها، دعا بقرطاس وكتب فيه.

(بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين ابن علي بن أبي طالب إلى بني هاشم، أما بعد، فإن من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف لم يبلغ مبلغ الفتح والسلام).

تهيئته عليه السلام للخروج

تهيأ الحسين بن علي عليهما السلام وعزم على الخروج من المدينة ومضى في جوف الليل إلى قبر أمه فصلى عند قبرها وودعها، ثم قام عن قبرها وصار إلى قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك، ثم رجع إلى منزله.

وروى عبد الله بن سنان الكوفي، عن أبيه، عن جده أنه قال: خرجت بكتاب من أهل الكوفة إلى الحسين عليه السلام وهو يومئذ بالمدينة فأتيته فقرأه فعرف معناه فقال:

(أنظرني إلى ثلاثة أيام).

فبقيت في المدينة ثم تبعته إلى أن صار عزمه بالتوجه إلى العراق، فقلت في نفسي امضي وأنظر إلى ملك الحجاز كيف يركب وكيف جلالته وشأنه، فأتيت إلى باب داره فرأيت الخيل مسرجة والرجال واقفين والحسين عليه السلام جالس على كرسي، وبنو هاشم حافّون به، وهو بينهم كأنه البدر ليلة تمامه وكماله، ورأيت نحواً من أربعين محملاً وقد زيّنت المحامل بملابس الحرير والديباج، قال: فعند ذلك أمر الحسين عليه السلام بني هاشم بان يركبوا محارمهن على المحامل، فبينما أنا انظر وإذا بشاب قد خرج من دار الحسين عليه السلام وهو طويل القامة وعلى خده علامة ووجهه كالقمر الطالع وهو يقول: تنحوا يا بني هاشم، وإذا بأمرأتين قد خرجتا من الدار وهما تجران أذيالهما على الأرض حياءً من الناس، وقد حفّت بهما إماؤهما، فتقدم ذلك الشاب إلى محمل من المحالم وجثا على ركبتيه، واخذ بعضديهما وأركبهما المحمل، فسألت بعض الناس عنهما فقيل: أما احداهما فزينب، والأخرى أم كلثوم بنتا أمير المؤمنين.

فقلت: ومن هذا الشاب؟ فقيل لي: هو قمر بني هاشم العباس ابن أمير المؤمنين.

ثم رأيت بنتين صغيرتين كأنّ الله تعالى لم يخلق مثلهما فجعل واحدة مع زينب والأخرى مع أم كلثوم، فسئلت عنهما فقيل لي: هما سكينة وفاطمة بنتا الحسين عليه السلام.

وقد خرج غلام آخر كأنه البدر الطالع، ومعه امرأة، وقد حفّت بها اماؤها، فاركبها ذلك الغلام المحمل، فسألت عنها وعن الغلام فقيل لي: أما الغلام فهو علي الأكبر ابن الحسين عليه السلام، والامرأة أمه ليلى زوجة الحسين عليه السلام.

ثم خرج غلام ووجهه كفلقة القمر، ومعه امرأة، فسألت عنها فقيل لي: أما الغلام فهو القاسم بن الحسن المجتبى، والامرأة أمه.

ثم خرج شاب آخر وهو يقول: تنحوا عني يا بني هاشم، تنحوا عن حرم أبي عبد الله، فتنحى عنه بنو هاشم، وإذا قد خرجت امرأة من الدار وعليها آثار الملوك، وهي تمشي على سكينة ووقار، وقد حفّت بها اماؤها، فسألت عنها فقيل لي: أما الشاب فهو زين العابدين ابن الإمام، وأما الإمرأة فهي أمه شاه زنان بنت الملك كسرى زوجة الإمام، فأتى بها واركبها على المحمل، ثم اركبوا بقية الحرم والأطفال على المحامل، فلما تكاملوا نادى الإمام عليه السلام:

(أين أخي، أين كبش كتيبتي أين قمر بني هاشم).

فأجابه العباس: لبيك لبيك يا سيدي.

فقال له الإمام عليه السلام:

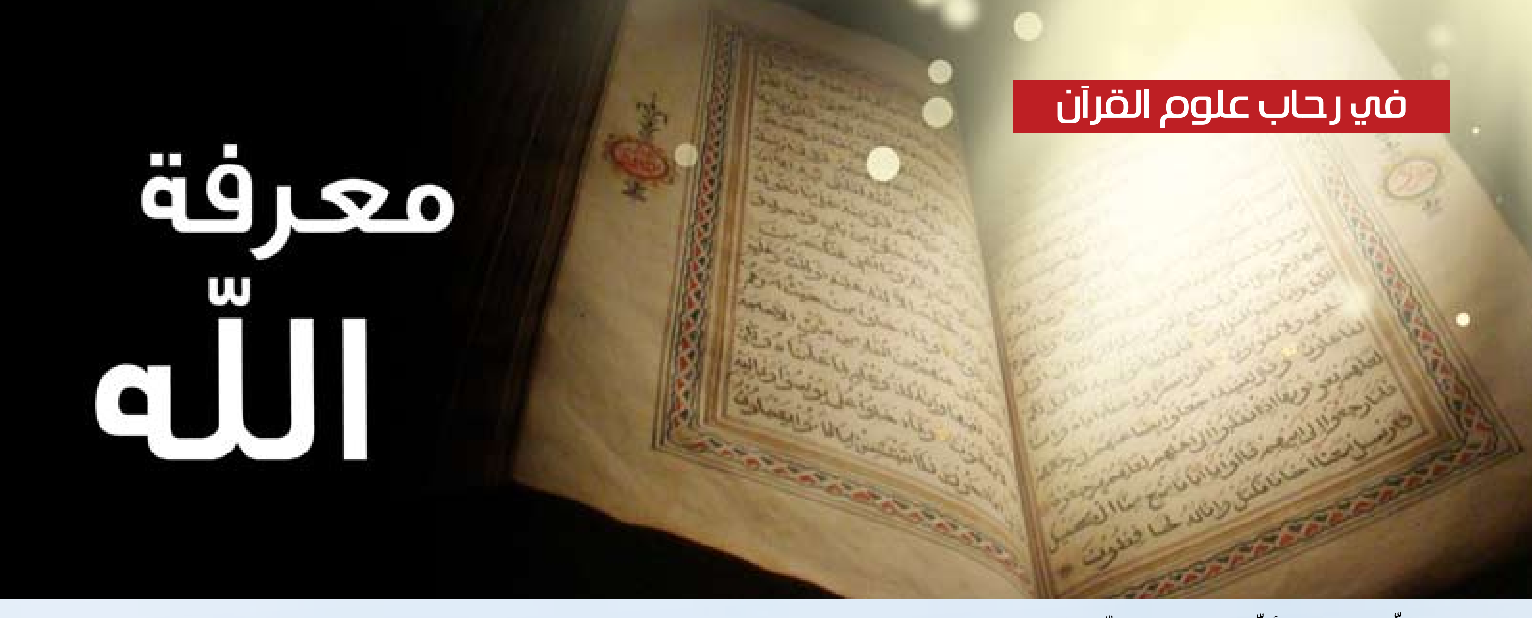
(قدّم لي يا أخي جوادي).

فأتى العباس بالجواد إليه وقد حفّت به بنو هاشم، فأخذ العباس بركاب الفرس حتى ركب الإمام، ثم ركب بنو هاشم، وركب العباس وحمل الراية أمام الإمام[1].

---

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٢٩٣ ـ ٢٩٨.

معرفة الله



إنّ معرفة أيّ موجودٍ تتمّ بإحدى صورتين: إحداهما المعرفة الشخصية والأخرى المعرفة الكلّية، فالمعرفة الشخصية بالنسبة للمحسوسات تتمّ بشكل إدراك حسيّ وبوساطة الحواسّ، أما في غير المحسوسات فهي ممكنة فقط بصورة العلم الحضوري والشهودي، والمعرفة الكلّية تحصل بوساطة المفاهيم العقلية بالنسبة لجميع الموجودات، وتتعلق هذه المعرفة في الواقع بالماهيّات والعناوين الكلّية للموجودات، وتنسب بالعرض للأفراد والأشخاص.

فمثلاً وعي الإنسان = (أنا المدرك) وبطاقاته الداخلية وأفعاله وانفعالاته النفسية كإرادته وحبّه ـ كل هذه تعدّ من المعرفة الشخصية الحضورية، أما علمه بالألوان التي يراها والأصوات التي يسمعها فهو معرفة شخصية حسّية، وتبقى معرفته لحسن وعلي وإبراهيم وحمزة بعنوان (إنسان) أي موجود حي يتمتع بالقدرة على التعقل وسائر الخصائص الإنسانية، فهذه معرفة كلّية لأنها تتعلق أصالة بماهيّة (الإنسان) ثم تنسب بالعرض لحسن وعلي و... وكذا معرفة (الكهرباء) بعنوان أنها طاقة تتبدّل إلى نور وحرارة، وتكون علة لوجود كثير من الظواهر المادية، فهي معرفة كلّية أيضاً لأنها تتعلق أصالة بعنوان كلّي،ثم تنسب العرض لكهرباء معينة.

وفي مورد الله جلّ وعلا يُتصور أيضاً لونان من المعرفة:

إحداهما المعرفة الحضورية التي تتم بدون وساطة المفاهيم الذهنية، والأخرى المعرفة الكلّية التي تحصل بوساطة المفاهيم العقلية، وهي لا تتعلق مباشرة بالذات الإلهية.

وكل العلوم الحاصلة بوساطة البراهين العقلية هي معارف كلّية وحصولية وبوساطة المفاهيم الذهنية، ولكنه إذا حصلت المعرفة الحضورية الشهودية لشخص فإنه يصل إلى المعلوم بدون وساطة المفاهيم الذهنية، ولعلّ المقصود من (الرؤية القلبية) المشار إليها في بعض الآيات والروايات هو المعرفة الشهودية، ولعلّ المراد من أن (الله لا بدّ أن يعرف بنفسه لا بمخلوقاته)، هو مثل هذه المعرفة، وكذا كثير من الإشارات الأخرى الواردة في بعض الروايات.[1]

إنّ الالتفات إلى هذه الملاحظة يصوننا من الأحكام المسبقة بالنسبة للآيات الواردة في معرفة الله، فيمنعنا من حملها جميعاً ومن دون تثبّت على المعرفة الكلّية العقلية، ويدفعنا للتعمق في مضمونها، لعلّ بعضها ناظر إلى علاقة القلب الشهودية بالله والموجودة بصورة واعية أو نصف واعية، وهي من ألوان المعرفة الشهودية والحضورية الشخصية.

ومن المسلم أنّ المعرفة الحضورية ليست قابلة للتعليم والتعلّم، لأن التعليم والتعلم يحصلان بوساطة الألفاظ والمفاهيم، ويقدّمان معاني خاصة لذهن السامع والمفكر، بينما العلم الحضوري ليس من قبيل المعاني الذهنية وليس قابلاً للنقل والانتقال للآخرين، وحتى البيان القرآني أيضاً لا يستطيع بذاته أن يمنحنا العلم الحضوريّ والشهوديّ، ولكنه يستطيع أن يدلّنا على الطريق الذي نصل منه إلى العلم الشهوديّ بالله تعالى، أو نرفع بفضله معرفتنا اللاواعية أو نصف الواعية إلى منزلة الوعي التام.

إذن لابدّ من استعمال الدقّة في هذا المجال لمعرفة: هل أن هدف القرآن هو أن يعلمنا المعرفة الكلية بالله تعالى وأسمائه وصفاته فقط، كما يقول بذلك الفلاسفة والمتكلمون؟

أم للقرآن هدف أرفع من ذلك أيضاً وهو أنه يريد أن يعرّف قلوبنا بالله ويهدينا إلى المعرفة الحضورية والشهودية؟

أما الأسماء الإلهية والألفاظ المستعملة في اللغات المختلفة في مورد الله تعالى على قسمين:

بعضها بعنوان أنه (اسم خاص) وحسب الاصطلاح، (علم شخصيّ)، وبعضها بعنوان أنه اسم عام أو صفة عامة، وقد يستعمل لفظ واحد بشكلين: أحياناً بشكل (اسم خاص) وأحياناً بشكل (اسم عام) أي أنّ فيه لوناً من (الاشتراك اللفظي).

ولفظ (خدا) في اللغة الفارسية (أي لفظ الجلالة) وما يشبهه في اللغات الأخرى (God) في اللغة الإنجليزية هو من هذا القبيل.

وفي اللغة العربية يستعمل اسم الجلالة (الله) بصورة اسم خاص وعلم شخصيّ، ويستعمل (الرحمن) بصورة صفة خاصة بالله، أمّا سائر أسماء الله وصفاته فهي ليست كذلك، ومن هنا فهي تجمع وتطلق على غير الله أيضاً مثل (رب ـ أرباب)، (إله ـ آلهة)، (خالق ـ خالقين)، (رحيم ـ رحماء وراحمين) و... كما جاء في الآية (١٢٨) من سورة التوبة حيث استعملت صفتا (رؤوف) و(رحيم) للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)).[2]

قد يوضع الاسم الخاص منذ البدء لموجود معين فلا تكون له سابقة في المعنى العام، وقد يستعمل بصورة اسم أو صفة عامّة قبل أن يصبح (علماً شخصيّاً) مثل محمد وعلي حيث إنّ لهما سابقة في الوصفيّة، مثل هذه الأسماء عندما توضع وضعاً جديداً بعنوان أنها (علم شخصي) فإنّ لها حكم الفئة الأولى.

وبناءً على هذا فإن لفظ الجلالة (الله) سواء أكان جامداً أو مشتقاً، يستعمل الآن بصورة (علم شخصي) وليس له من معنى سوى الذات الإلهية المقدسة، ولكن لمّا كانت الذات الإلهية غير قابلة للمشاهدة فلمعرفة معنى (الله) يقدمون عنواناً يختص بالله

تعالى مثل: (الذات الجامعة إذن البحث حول مادة هذه الكلمة وهيئتها لا يمكن أن يساعدنا على فهم معناها بعنوان أنها علم شخصي.

لفظ (خدا) في اللغة الفارسية وإن كان مخففٍ (خودآ) كما يقولون وهو مرادف تقريباً لـ(واجب الوجود) ولكن بالرجوع إلى مشابهاته من قبيل (خداوند) و(كد خدا) يمكن القول إنّ معناه اللغوي يشبه معنى (الصاحب) و(المالك)، والمعنى الذي يفهم منه عرفاً يشبه معنى الخالق والمبدع.

أما في القرآن الكريم فإن أكثر التعبيرات شيوعاً في مورد الله تعالى هي (إله) و(ربّ) وقد استعملت كلمة (إله) في شعار التوحيد (لا إله إلاّ الله)، ومن هنا فإنّ من المناسب أن نتناول هاتين الكلمتين بالتوضيح:

(إله) على وزن (فعال) بمعنى (مفعول)، مثل (كتاب) بمعنى (مكتوب)، ومعناها اللغوي هو (المعبود) ولكنه يمكن أن يقال إن (إله) قد لوحظ فيها معنى الشأنية واللياقة مثل كثير من المشتقات، فيكون معناها (المؤهل أو اللائق للعبادة)، وبناء على هذا فلا نحتاج إلى تقدير صفة أو متعلق في جملة (لا إله إلاّ الله).

بينما إذا كان معنى (الإله) هو المعبود فإن معنى كلمة التوحيد حينئذ هو (لا يوجد معبود سوى الله)، وهذا مخالف للواقع، لأن أشخاصاً وأشياء كثيرة قد عبدت في هذا العالم، ولهذا فقد اضطروا لتقدير صفة أو متعلق وقالوا لم يجد ولا يوجد معبود بحق سوى الله، وأما إذا كان معنى (الإله) هو المستحق للعبادة أي أنه لوحظ فيه معنى الشأنية فلسنا بحاجة حينئذ إلى أيّ تقدير.

وقد يثار هنا سؤال آخر وهو: إذا كان معنى الإله هو اللائق للعبادة فكيف جمع في القرآن نفسه وأطلق على المعبودات بغير حق، كما ورد تعبير (إلهك) بالنسبة لعجل السامريّ، وتعبير (آلهتك) بالنسبة لمعبودات فرعون؟

والجواب على هذا السؤال هو أن مثل هذه الإطلاقات تكون حسب عقيدة المخاطبين أو نقلاً عن لسان المشركين، ويصبح معناها في الواقع: ذلك الشخص أو الشيء اللائق للعبادة حسب ظن القائل أو السامع، إذن حتى في مثل هذه الموارد أيضاً يمكن القول إن معنى الشأنية ملحوظ فيها ولكن حسب عقيدة القائل أو السامع لا بحسب الواقع.

وأما (ربّ) التي تترجم في اللغة الفارسية إلى (بروردكار) فلها في الأصل معنى يشبه (صاحب الاختيار) كما يفهم من موارد استعمالها مثل (ربّ الإبل) و(ربّة الدار)، وهذه الكلمة وإن كانت لها مناسبة مع مادة (بي) بحسب الاشتقاق الكبير ولكن معناها ليس هو عين معنى (المربّي)، وعلى هذا فلا تصبح ترجمتها إلى (بروردكار) دقيقة، وهذ تطلق على الباري جلّ وعلا بلحاظ أنه صاحب الاختيار بالنسبة لمخلوقاته، وهو في التصرف وتدبير أمورهم ليس بحاجة إلى إذن أو إجازة أحد لا تكويناً ولا تشريعاً.

إذن معنى الاعتقاد بربوبية أحد هو أنه يستطيع مستقلاً ومن دون حاجة إلى إذن أيّ أحد آخر أن يتصرف في أيّ شأن من شؤون مربوبه، والاعتقاد بالتوحيد الربوبيّ يعني الاعتقاد بأن الله وحده الذي يستطيع بصورة مستقلة ومن دون حاجة إلى أيّ إذن أو إجازة أن يتصرف في جميع شؤون مخلوقاته (كل العالم) وأن يديرها ويدبّرها.

وبالتأمل في معنى (الإله) و(الربّ) يتضح لنا أنّ الألوهية تستلزم الربوبية لأنّ العبادة لا تكون إلا لمن هو صاحب الاختيار ويتصف بالربوبية والمالكية ويستطيع أن يتصرّف في شؤون مربوبه مستقلاً وأن يمنحه خيراً أو يبتليه بضرّ.

الدليل العقلي على وجود الله في القرآن

إن أوّل مسألة تطرح للبحث في باب معرفة الله في القرآن هي:

هل استدلّ القرآن الكريم على إثبات وجود الله أم لا؟

كثير من المفسرين ـ ولاسيّما من كانت له يد في علم الكلام منهم ـ عدّ آيات كثيرة من القرآن هادفة إلى إثبات وجود الله، وأخرجوها بصورة براهين يمكن إعادة أغلبها إلى (برهان النظام).

ووقفت فئة أخرى من المفسرين في مقابل هؤلاء معتقدة أنّ القرآن الكريم، يعدّ وجود الله مستغنياً عن الاستدلال، وهو لم يحاول إثبات ذلك على الإطلاق، وجميع البراهين التي تدّعيها الفئة الأولى فهي إمّا أن تكون في مقام إثبات التوحيد ونفي الشرك وإمّا أن لا تكون موجودة في القرآن بصورة برهان، وإنما المفسرون هم الذين أخذوا بعض الآيات القرآن وضموا إليها مقدّمات أخرى ثم أخرجوها بصورة برهان.

ومحاكمة هذه الآراء لاختيار الصحيح الدقيق منها تحتاج إلى دراسة مفصلة وشاملة، لا تتناسب مع هذا البحث المضغوط، ولكن الذي يمكن ذكره بعنوان وجه للجمع أو للتقريب بين هذين القولين هو: لعلّ القرآن الكريم لم يحاول إثبات وجود الله بصورة مباشرة إمّا لأنه يعدّ وجود الله أمراً يقرب إلى البديهي وليس بحاجة إلى استدلال، وإمّا لأنه لم يواجه منكراً ذا بال، وقد يؤدي طرح هذا الموضوع إلى الوسوسة وهو خلاف الحكمة، ولكنه على أيّ حال يمكن استخراج بعض الاستدلالات على هذا الموضع من البيانات القرآنية.

ولا يبعد أن يكون القرآن نفسه قاصداً لهذه الاستدلالات عن طريق غير مباشر، مثلاً لا مانع من أن تكون هناك آية واردة لإثبات وحدانية الله بصورة مباشرة، ولكنها تثبت بشكل غير مباشر أصل وجود الله أيضاً، أو آية واردة في مقام الاحتجاج على المشركين والمنكرين لنبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وهي تبين في أثناء ذلك موضوعاً يثبت وجود الله أيضاً.

وللمثال نذكر الآية (٣٥) من سورة (الطور) فهي في مقام الاحتجاج على الكفار المتمنعين عن الإيمان بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهي تطرح سؤالات بصورة (الاستفهام الانكاري)، ومن جملتها قوله تعالى:

((أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ))[٣]

لا شك أنّ هذه الآية ليست في مقام إثبات وجود الله صراحة، ولكن يمكن استنباط برهان لهذا الموضوع من مضمونها بهذا الشكل: إن الإنسان إمّا أن يكون قد جاء بذاته ومن دون خالق، وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه، وإمّا أن يكون له خالق آخر، ومن الواضح جداً بطلان الفرضين الأول والثاني، فالعاقل لا يستطيع أن يقبل شيئاً منهما، إذن لابدّ أن يكون الفرض الثالث هو الصحيح وهو أنّ له خالقاً.

ويتوقف هذا الاستنباط على أن يكون مصداق (شيء) المذكور في الآية الشريفة هو (الخالق)، فيصبح معنى الآية: أم خلق الكافرون من دون خالق أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وبديهيّ أن الفرضين غير صحيحين، والجواب على كلا السؤالين بالنفي، إذن لابدّ أن نعتقد بوجود الخالق[٤].

---

(١) من قبيل ما ينقل عن الإمام الباقر عليه السلام: (كل ما ميزتموه بأوهامهم في أدقّ معانيه مخلوق مصنوع مثلكم مردود إليكم)؛ وما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام: (ومن زعم أنه يعبد بالصفة لا بالإدراك فقد أحل على غائب... إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفته صفة الغائب قبل عينه).

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(٤) معارف القرآن لأستاذ محمد تقي المصباح: ص٢١ ـ ٢٨.

جاذبية نه
الخـــــا

لقـد شـعر جميـع مـن تعامـل مـع نهج البلاغة . من قبل أشياع علي(عليه السلام) أو سائر العلماء والأُدباء المسلمين ومن سائر الأديـان . دون اسـتثناء بوجـود قـوة كامنـة تشدهم إليه وتجعلهم يتأثرون به ويتكهربون بأجوائه.

والحق إنّ مثل هذه الجاذبة التي اتسمت بهـا كافة خطبه ورسـائله وكلماته هى التي دفعت بفريق من العلماء لتناول هذا الكتاب النفيس بالشـرح والتفسير وتدوين المقالات والأبحـاث والاسـتغراق في مختلـف جوانب شـخصية الإمام علي(عليه السلام). بدورنا نـرى أن هـذه الجاذبـة تختزن عـدّة دوافع، يمكن إيجاز أهمها في ما يلي:

١ . لقـد شـحن نهـج البلاغـة بالأقـوال الـتي تصـرح بمواساة الطبقـات المحرومة والمسـتضعفة، إلى جانـب الحديـث عـن مجابهـة الظلـم والطغيـان ومقارعـة حكام الجـور والطواغيت. فقـد تعـرض في عهده الذي عهده إلى مالك الأشتر حين ولاه مصر إلى الخطط والبرامج التي ينبغي اعتمادها في كيفية إدارة شـؤون البـلاد. يتحدث(عليه السـلام) في هذا العهد عن حقوق ووظائف الطبقـات الاجتماعية السـبع، حتـى إذا بلغ الطبقـة المحرومـة مـن النـاس أفصـح عن مكنونـات نفسـه وسـيرته في التعامـل معها فيوصي عامله قائلاً له: «اللّه اللّه في الطبقة السـفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجـين وأهل البؤسـى والزمنـى...»، ثم يؤكد عليه: «فلا يشغلنك عنهم بطر فانّك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامه الكثير المهم. فلا تشـخص همك عنهـم، ولا تصعر خدك لهـم، وتفقـد اُمور مـن لا يصل إليـك منهم ممـن تقتحمه العيـون، وتحقره الرجال» ولم تقتصـر وصاياه(عليه السـلام)بهذا المجال في هـذا العهـد فحسـب، بل لم ينفـك يؤكد ذلـك في كل خطبـة من خطبـه وموعظة من مواعظه لعماله وولاته.

٢ . لقد سـلك نهج البلاغة سبيل تحرير الإنسان من أسر الهوى والشهوات التي تؤدي به إلى البؤس والشـقاء، وكذلك تحريره من قيـود الطواغيت والظلمة، فهو يسـتفيد من كل فرصة لتحقيق هذا الهدف المقدس، إلى جانـب تأكيـده على أنّه ما جاع فقير إلاّ بما متع به غـني، وأن تراكم الثروة يفيد تضييع الحقـوق وعدم العمـل بالأحكام الشـرعية. (الإمـام علـي صـوت العدالـة الإنسـانية ١٧٧/٣).

ويصـرح الإمـام (عليـه السـلام): «أمّا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضـر وقيـام الحجـة بوجـود الناصـر، ومـا أخـذ اللّه علـى العلمـاء أن لا يقـاروا علـى كظة ظالم، ولا سـغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسـقيت آخرها بكأس أولهـا، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطـة عنز»! فهو يؤكد على شـدة تنمره في إعـادة روح الحرية والعدالة والمسـاواة التي لا يعـرف المهادنة فيها، بل أبعد من ذلك في أنّـه لا يـرى الامرة والحكومة سـوى وسـيلة ووظيفـة لتحقيـق هـذه الأهـداف (الخطبة الشقشقية الخطبة ٣).

ويخطـئ كل مـن يظـن أنّ علياً (عليـه السلام) يمكنه أن يتهاون في هذا الأمر، ولم يعرف عمق شخصية علي; الأمر الذي أكده في رسـالته إلى عثمـان بن حنيف(الرسـالة رقم ٤٥).

٣ . النفحـات العرفانيـة التي ينبض بها نهـج البلاغـة إنّما تناغم الأرواح المتعطشـة للحكمـة فتسـقيها الشـراب الطهـور الذي يسكرها بالعلم والمعرفة!

فـلا يرى القارئ لخطبه في اللّه وصفاته الجماليـة والجلاليـة سـوى أنّـه يحلـق مع الملائكـة ليخـترق حجـب المعرفـة والكمال (الخطبـة الأولى وخطبـة الأشـباح / ٩١ وسائر الخطب بهذا الشأن).

امّـا إذا تحـدث عـن أهـوال القيامـة وسكرات الموت والعاقبة التي تنتظر الإنسان فـلا تـراه إلاّ وكأنّه أمسـك بقبضة الغافلين وأخذ يسوقهم نحو المصير الذي منه يهربون والعاقبـة التي عنهـا لاهون.(الخطب ١٠٩ . ١١١ . ١١٣ وما شابهها)

٤ . قـوة الجاذبيـة الاُخرى التي يختزنها نهـج البلاغـة والـتي أشـرنا إليهـا سـابقاً أنّه(عليـه السـلام) أمـير الـكلام في كل موضـوع يطرقـه بمـا يجعلـك تتصـور أنّـه بـارع في هذا الموضـوع وقد أفنـى عمره في بيان عناصره ومقوماته وسـائر جوانبه، ولا يحسـن شـيئاً آخر سواه وسـرعان ما يتبدد هـذا التصـور حـين تطالعه وقـد تحدث في موضوع آخر . فاذا تناول . على سـبيل المثال . قضية التوحيد وشـرح أسماء اللّه وصفات الجلال، خيل إليك أنّه فيلسوف رباني سبر أغوار التوحيد وانهمك فيه لسنوات متمادية وليس له مثل هذا العمق فيما سـواه; فليس للتجسم من سبيل إلى حديثه، ولا من سبيل إلى سـلبه الصفـات، بـل يقـدم صـورة عن التوحيد تجعل الإنسـان يـرى ربّه ببصيرته في كافة السـموات والأرضـين حاضراً فيها وفي نفسـه فيمتلـئ قلبـه حبّـاً للّه ومعرفـة

نهج البلاغة
خارقة

به. بينما لا تكاد العين تقع على خطبته في الجهاد، حتى لا تغيب عنها صورته كآمر شجاع ومقاتل باسل مغوار قد ارتدى بزته العسكرية وأخذ يستعرض أساليب الحرب وفنون القتال وستراتيجية الدفاع والهجوم، وكأنّه أفنى عمره في ميادين الوغى وساحات القتال ولم تدعه يفكر في ما سواها.

فإذا تصفحنا نهج البلاغة وطالعتنا خطبه ووصاياه لعماله وولاته حين أخذ بزمام الأُمور وتزعم قيادة الأُمّة، رأيناه يكشف النقاب عن عناصر تألق الحضارات وازدهارها وأسباب سقوطها وانهيارها، إلى جانب استعراض مصير الأقوام الظالمة والأُمم المستبدة بالاضافة إلى الاسس والمبادئ التي من شأنها ضمان سلامة الأنظمة الاجتماعية والسياسية الحاكمة، بما يجعلك تظن بأنّه عكف عمراً على هذه الأُمور ويختص بها دون الاهتمام بسائر ميادين الحياة ونواحيها. ثم نقلب صفحات النهج لنراه زعيماً أخلاقياً هادياً البشرية نحو تهذيب النفس ومكارم الأخلاق. يلتقيه أحد الأصفياء من أصحابه ويدعى «همام» الذي يسأله أن يصف له المتقين. فيعدد له(عليه السلام) ما يقارب المئة من صفاتهم بعبارات أحكم صياغتها وبلاغتها كأنّه جلس عمراً لدروس الأخلاق والتهذيب وتربية النفوس حتى يصعق همام صعقة كانت نفسه فيها. حقاً إنّ هذه الأبحاث العميقة الفريدة المتنوعة التي شحن بها نهج البلاغة تعدّ من الخصائص والمميزات التي اتصف بها هذا الكتاب العجيب.

أقوال العظماء بشأن جاذبية نهج البلاغة

الأقوال التي ساقها كبار جهابذة العلماء بخصوص الجاذبية الكامنة في نهج البلاغة تعدّ من الشواهد التي تعزز ما أوردناه سابقاً بهذا الشأن:

فالسيد الرضي جامع نهج البلاغة الرائد الذي يعدّ من مشاهير الأُدباء العرب يصرح أحياناً حين نقله لبعض الخطب ببعض العبارات التي تكشف عن عمق افتتانه بما يورد وعدم تمالكه لنفسه تجاه قوة سبك عبارات صاحب النهج. ومن ذلك أنّه قال إثر نقله للخطبة رقم «٨٣» من نهج البلاغة «وفي الخبر أنّه لما خطب بهذه الخطبة اقشعرت له الجلود وبكت العيون ورجفت القلوب» ونقرأ في خطبة المتقين. حين سأله ذلك العارف «همام» عن صفات المتقين. أنّه حين بلغ ذلك الموضع من الخطبة، صعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «امّا واللّه لقد خفتها عليه، هكذا تفعل المواعظ البالغة في أهلها».

كما علق السيد الرضي على الخطبة رقم «٢٨» ليعرب عن عمق أثرها في روحه وعقله فقال: «إنّه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام، وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال، وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار...» وأضاف: «ومن أعجبه قوله(عليه السلام): «ألا إنّ اليوم المضمار وغدا السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار» فان فيه مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً... فتأمل ذلك فان باطن كلامه عجيب، وغوره بعيد لطيف، وكذلك أكثر كلامه(عليه السلام)».

وقال في ذيل الخطبة «١٦»: «إنّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع الاحسان مالا تبلغه مواقع الاستحسان، وان حظ العجب منه أكثر من حظ العجب به». وفيه. مع الحال التي وصفنا. زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان، ولا يطلع فجها إنسان، ولا يعرف ما أقول إلاّ من ضرب في هذه الصناعة بحق، وجرى فيها على عرق «وما يعقلها إلاّ العالمون».

وهكذا نقل ما أورده المفسر والمحدث المعروف «ابن عباس» حين ألقى الإمام خطبته الشقشقية حين قام إليه رجل من أهل السواد فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فقال له: يا أمير المؤمنين، لو أطردت خطبتك من حيث أفضيت. فقال: «هيهات يابن عباس! تلك شقشقة هدرت ثم قرت». قال ابن عباس: «فو اللّه ما أسفت على كلام قط كأسفي على هذا الكلام ألا يكون أمير المؤمنين(عليه السلام) بلغ منه حيث أراد».

فقد قال ابن أبي الحديد: «هو سيد المجاهدين وأبلغ الواعظين ورئيس الفقهاء والمفسرين وإمام أهل العدل والموحدين». (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧/ ٢٠٢ بتلخيص).

بحث مستل من كتاب نفحات الولاية في شرح نهج البلاغة للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.



المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام

مميّزات المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام

اختصّ منهج أهل البيت (عليهم السلام) بخصائص امتاز بها عن غيره من المناهج، وهي تعدّ الحجر الأساس في بناء الشخصية لمن يلتزم بها، ومن أهمها:

ربانيّة المنهج التربوي

أهل البيت (عليهم السلام) عنوان مضيء في حياة الإنسانية، وعنوان شامخ في حركة التاريخ والمسيرة الإنسانية، وهم أعلام الهدى وقدوة المتقين، عرفوا بالعلم والحكمة والإخلاص والوفاء والصدق والحلم وسائر صفات الكمال في الشخصية الإسلامية ؛ فكانوا قدوة المسلمين وروّاد الحركة الاصلاحية والتغييرية في المسيرة الإسلامية، وكان لهم مقامهم الكريم ودورهم السامي عند الفقهاء والمفسرين والرواة والمؤرخين والأدباء والشعراء، وعند العابدين والزاهدين والأولياء.

وقد مثّل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل البيت (عليهم السلام) بسفينة نوح فقال: «ألا إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح... من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق ». (راجع الامالي للشيخ الطوسي ص٦٠).

ووصفهم أمير المؤمنين (عليه السلام) قائلاً: « هم عيش العلم وموت الجهل يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقهم لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، وهم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحقّ إلى نصابه... عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية ». (نهج البلاغة ج٢ ص٢٣٢).

وقال الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): « والله ما نقول بأهوائنا، ولا نقول برأينا، ولا نقول إلاّ ما قال ربّنا». (الأمالي للشيخ المفيد ص٦٠).

وعلى ضوء ما تقدّم يمكن القول: ان منهج أهل البيت(عليهم السلام) التربوي هو منهج رباني بمعنى انه موضوع من قبل ربّ الإنسان وخالقه وليس من وضع الإنسان، فقد وضعه من له إحاطة تامة بالعالم كلّه وبالأرض كلّها وبالناس كلّهم ؛ يعلم سكنات النفس وما تخفي الصدور، وهو سبحانه وتعالى أودع الغرائز والرغبات في الإنسان، ولذلك فهو أعلم بكيفية إشباعها وبكيفية التوازن بينها، فيكون المنهج التربوي الموضوع من قبله تعالى كاملاً لا نقص فيه ولا ضعف، فيستجيب له الانسان مطمئناً بأنّه المنهج الأمثل في التربية، أمّا المناهج الوضعية فهي صادرة من البشر الذي يتصف بالضعف وعدم الاحاطة التامة بالحياة، ويتصف بمحدودية فكره وكثرة أخطائه اضافة إلى تحكم الأهواء به، فتكون ناقصة وقابلة للتبدّل والتغيّر لتغيّر آراء وتصورات واضعيها.

وقد أثبت منهج أهل البيت(عليهم السلام) التربوي قدرته على بناء الإنسان بناءً متكاملاً، فقد تخرج على هذا المنهج مئات الشخصيات التي كانت قمة في السمو الروحي والتكامل النفسي والسلوكي، وقدوة لجميع بني الإنسان لاستشعارها بأن المنهج ربانيّ النشأة وربانيّ المصدر، وبعد أن واكبت تعاليمه وإرشاداته وقواعده

منذ بداية الحياة الزوجية باختيار شريك الحياة المتديّن الصالح، ومروراً بمرحلة الحمل والطفولة بجميع مراحلها، وكانت تلك الشخصيات قدوة لجميع بني الإنسان.

شمولية المنهج التربوي

يمتاز منهج أهل البيت(عليهم السلام) التربوي بالشمول، فهو يراعي الإنسان في جميع مقوماته، وينظر إليه من جميع جوانبه، فهو مخلوق مزدوج الطبيعة روح وعقل وغرائز، وجسد متعدد الجوارح، وهو موضوع للإنسان ككل فلا انفصال بين حاجات الجسد وحاجات الروح، فهو يدعو إلى إشباع حاجات الإنسان لكي يتقبل ما يلقى إليه من قواعد وأسس تربوية وتوجيهية وإرشادية.

والمنهج التربوي لأهل البيت (عليهم السلام) يواكب حركة الانسان في جميع مراحلها ابتداءً باختيار شريك الحياة المناسب مروراً بمرحلة الاقتران وانعقاد الجنين ومراحل الطفولة الأخرى، ويضع لكل مرحلة تعاليم وتوجيهات منسجمة مع عمر الطفل الزمني والعقلي، ومع حاجاته المادية والروحية، ثم تأتي التكاليف حينما يصل الطفل إلى مرحلة من النضج الجسدي والعقلي ; لتكون هي الموجهة له في حركته الواقعية في الحياة.

والمنهج لا يقتصر على تعاليم وإرشادات خاصة في مجال معين بل انها شاملة لجميع المجالات، وكل ما يسهم في تربية الإنسان بشكل أو بآخر، حيث يبدأ المنهج بربط الإنسان وخصوصاً في مرحلة الطفولة بالمفاهيم والتصورات الإسلامية الأساسية، كالإيمان بالله تعالى، وبالثواب والعقاب، وذكر الله عن طريق قراءة القرآن والدعاء والعبادة، وذكر الموت، والرضا بالقضاء.

والمنهج يتدخل في جميع المؤثرات التربوية، فيدعو إلى إصلاح المحيط التربوي المتمثل بالأسرة والأصدقاء وحلقات الذكر والمسجد والعلماء وأجهزة الدولة.

ولا يقتصر المنهج على إلقاء التعاليم والإرشادات، بل يدعو إلى خلق الأجواء السليمة التي تسهم في تطبيق تفاصيل المنهج، وهي تعميق المودة داخل الأسرة، ومراعاة الحقوق والواجبات، وتجنّب المشاكل والخلافات، وإشباع حاجات الطفل إلى الحب والحنان والتكريم وإشعاره بذاته، وإشباع حاجاته إلى الرفاهية وإلى اللعب وإلى الحرية وإلى السلطة الضاغطة الموجهة.

والمنهج التربوي شامل في استخدام أساليب اللين والشدة ومراعاة الحقوق والواجبات، وهو شامل لمعرفة الأفكار وتنميتها، وتنمية العواطف، وتنمية الارادة، وتربية السلوك، ويتصاعد المنهج التربوي بتكثيف التربية والتمرين على الطاعات المختلفة حسب القدرة ودرجة التلقي وتفاوت الأعمار.

والمنهج شامل في اختيار المربين والمصلحين من حيث خصائصهم الذاتية وخصائصهم العملية لكي تكون التربية ناجحة ومنسجمة مع المنهج الإلهي العام.

والمنهج شامل في اختيار الأساليب الناجحة والتي تؤثر على العقول والقلوب بعد أن تستجيب إليها لانسجامها مع ظروف الناس وأحوالهم.

واقعية المنهج التربوي

راعى المنهج التربوي لأهل البيت(عليهم السلام) واقع الإنسان من جميع جوانبه، فهو كائن ذو شطرين ذكر وأنثى، ولكلّ منهما خصائصه الفسيولوجية والسلوكية، وهو كائن ضعيف محدود القدرة بالقياس إلى خالقه، وهو كائن ذو قدرات بالقياس لغيره من المخلوقات، وهو كائن ذو نجدين يحمل في جوانحه نوازع الخير والشر معاً، وهو كائن يؤثر ويتأثر بالمحيط الذي يعيشه سلباً أو ايجاباً.

وراعى المنهج التربوي لأهل البيت (عليهم السلام) واقع الإنسان ناظرا إلى جميع جوانبه داعياً إلى اشباعها بتوازن بحيث لا يطغى جانب على جانب، ولا ناحية على ناحية، وقد وضع لكل جانب مقوماته وحدوده الواقعية فلا تقييد مطبق ولا إطلاق العنان دون تناه.

وهو منهج تتقبله العقول والنفوس بلا حرج ولا مشقة، والإنسان حينما يلتزم بقواعده يشعر بمناغاتها له وانسجامها مع كيانه المزدوج، وهي سهلة التطبيق لمن استعدّ لها وتهيأت له الأرضية المناسبة عن طريق الوراثة والمحيط الاجتماعي في جميع مراحله.

ومن واقعيته انّه راعى دور الوراثة ودور المحيط التربوي في البناء التربوي للإنسان، وراعى دور التقييم الذاتي والتقييم الاجتماعي في التربية، وراعى دور القدوة في التربية وجميعها أمور واقعية.

ومن واقعية منهج أهل البيت (عليهم السلام) التربوي انّه ثابت في أصوله وأسسه متطور في أساليبه ووسائله كما روي عن أمير المؤمنين(عليه السلام) قوله: « لا تقسروا أولادكم على آدابكم، فانّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم ». (شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج٢٠ ص٢٦٧).

ومن واقعيته انّه لا كلفة فيه ولا تكلّف وان أسسه وقواعده منسجمة مع طاقات الإنسان في جميع مراحل حياته، ولهذا راعى واقع الإنسان في تكاليفه وفي إرشاداته وفي أوامره ونواهيه، فلم يطلب منه الانقطاع للعبادة مثلاً، فقد جعل العبادات محدودة توصله بربّه ولا تقطعه عن مجتمعه، وراعى الظروف الطارئة للإنسان فنوّع العبادة، في الحضر والسفر والمرض، وجعل العبادات المندوبة منسجمة مع اختيار الإنسان ورغبته، فراعى طاقته المحدودة وتبدل الإقبال في نفسه وفي واقعه الخارجي، وفي ذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنّ للقلوب شهوة وإقبالا وإدبارا، فاتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فانّ القلب إذا اكره عمي». (بحار الأنوار للمجلسي ج٦٧ ص٦١).

وفي جميع الظروف والأحوال فإنّ المنهج التربوي راعى طبيعة الإنسان من حيث ضعفه ومحدوديته، فهو تركيب من لحم ودم وأعصاب، ومن عقل ونفس وروح، ومن غرائز وشهوات، وله رغبات وأوضاع نفسية كالحب والبغض، والرجاء والخوف، والأنا والتنافس وما شابه ذلك، ولهذا راعى الضعف البشري والدوافع البشرية والحاجات البشرية، فجاء منسجماً مع الإنسان مقبولاً لديه لا كلفة فيه ولا عناء[1].

(١) بحث مستل من كتاب المنهج التربوي عند أهل البيت للسيد سعيد كاظم العذاري.

معالجة الرذائل المتعلقة بالقوة العاقلة

الجربـزة وعلاجهـا - الجهـل البسـيط وعلاجه - شـرف العلم والحكمـة ــ آداب التعلم والتعليـم - العلم الإلهـي والأخلاق والفقه أشرف العلوم - أصول العقائد المجمع عليها - الجهل المركب والشك ــ اليقـين - علامات صاحبـه - مراتب اليقين - الشـرك - التوحيد - التـوكل علـى الله - حق التوكل بماذا يحصل - مناجاة السـر لأرباب القلوب - الخواطر النفسـانية والوسـاوس - أقسام الخواطر ومنها الإلهام - المطاردة بين جندي الملائكة والشياطين في معركة النفس - العلائم الفارقة بين الإلهام والوسوسة - علاج الوساوس - ما يتم به علاج الوساوس - ما يتوقف قطع الوساوس عليه - حديث النفس لا مؤاخذة عليه - الخاطر المحمود والتفكر - مجاري التفكر في العوالم والمخلوقات.



الطريق لحفظ اعتدال الفضائل

الحلقة الثانية

الجربزة

هي التدقيق في الأشياء التي لا تحتاج إليه.

وهـي الموجبـة للخـروج في الفكر عـن الحد اللائـق وعدم اسـتقامة الذهن على شـيء بل لا يزال يسـتخرج أموراً دقيقة غير مطابقة للواقع ويتجاوز عن الحق ولا يسـتقر عليه، وربما أدى في العقليـات إلى الإلحـاد وفسـاد الاعتقـاد، بل إلى نفي حقائق الأشـياء رأساً كما للسوفسـطائية، وفي الشرعيات إلى الوسواس.

وعلاجـه بعد تذكر قبحه وإيجابه للهلاك، أن يكلف نفسـه على الاسـتقامة على مقتضى الأدلة المعتبرة عند أولي الأفهام المسـتقيمة، ولا يتجـاوز عـن المعتقـدات أهل الحـق المعروفين بالتحقيق واسـتقامة القريحة، ولا يزال يكلف نفسـه على ذلك حتى يعتاد القيام على الوسط، وربما كان للاشتغال بالتعليمات نفع في ذلك.

الجهل البسيط

وقد عرفت أنه من باب التفريط، وهو خلو النفس عن العلم من دون اعتقاد بكونها عالمة، وهو في البداية غير مذموم لتوقف التعلـم عليـه، إذ ما لم تعتقد النفـس جهلها بالمعارف لم تنهض لتحصيلها، وأما الثبات عليه فهو من المهلكات العظيمة.

والطريـق في إزالـة أمـور: (الأول) أن يتذكـر مـا يدل على قبحـه ونقصـه عقـلاً، وهـو أن يعلـم أن الجاهل ليس إنسـاناً بالحقيقة، وإنما يطلق عليه الإنسـان مجازاً، إذ فضل الإنسـان عـن سـائر الحيوانات إنما هو إدراك الكلـي المعبر عنه بالعلم، لمشـاركتها معه في سـائر الأمور من الجسمية والقوى الغضبية والشـهوية والصـوت وغير ذلـك، فلولا علمه بحقائق الأشـياء وخواصها لكان حيواناً بالحقيقة، ولذا ترى أن من كان في محل محـاورات العلمـاء وكان جاهلاً بأقوالهم لم يكن فرق بينه وبين البهائم بالنسبة إليهم، وأي هلاك أعظم من الخروج عن حدود الإنسانية والدخول في حد البهيمية.

(الثانـي) أن يتذكر ما ورد في الشـريعة مـن الذم عليه مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

(سـتة يدخلون النار قبل الحسـاب لسـتة) وعد منهم أهل الرساتيق بالجهالة.

(الثالـث) أن يتذكـر ما يدل على فضيلـة العلم عقلاً ونقلاً كما نذكره وإذا وقف على جميع ذلك فليتيقظ عن سنة الغفلة، ويصـرف في إزالته الهمة ويجتهـد في تحصيل العلم عن أهليه، ويصرف فيه أيامه ولياليه.

شرف العلم والحكمة

قد علم أن ضد الجنسين - أي الجربزة والسفسطة والجهل ــ هو الحكمة، أعني العلم بحقائق الأشـياء، فلنذكر أولاً بعض ما يدل على شـرافته عقلاً ونقلاً ترغيباً للطالبين على السـعي في تحصيله وإزالة الجهل عن نفوسهم، فنقول:

لا ريـب في أن العلـم أفضـل الفضائـل الكماليـة وأشـرف النعوت الجمالية، بل هو أجل الصفات الربوبية وأجل السمات الألوهيـة، وهـو الموصل إلى جوار رب العالمين والدخول في أفق الملائكـة المقربـين، وهـو المـؤدي إلى دار المقامة الـتي لا تزول ومحـل الكرامـة التي لا تحـول، وقـد تطابق العقـل والبرهان وإجمـاع أربـاب الأديان على: أن السـعادة الأبديـة والقرب من

الله سبحانه لا يتيسران بدونه، وأي شيء أفضل مما هو ذريعة إليهما.

وأيضاً قد ثبت في الحكمة المتعالية أن العلم والتجرد متلازمان، فكلما تزداد النفس علماً تزداد تجرداً، ولا ريب في أن التجرد أشرف الكمالات المتصورة للإنسان، إذ به يحصل التشبه بالملأ الأعلى وأهل القرب من الله تعالى.

ومن جملة العلوم معرفة الله التي هي السبب الكلي لإيجاد العالم العلوي والسفلي، كما دل عليه الخبر القدسي:

(كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق).

على أن العلم لذيذ في نفسه محبوب في ذاته، وما يحصل منه من اللذة والابتهاج قلما يحصل من غيره، والسر فيه أن إدراك الأشياء والإحاطة بها نوع تملك وتصرف لها، إذ تتقرر في ذات المدرك حقائقها وصورها، ومثل هذا التملك لدوامه وجزئية المدرك لمدرك أقوى من ملكية الأعيان المباينة لذات المالك الزائلة عنه. والتحقيق: إن إطلاق الملكية عليه مجازي، والنفس لكونها من سنخ عالم الربوبية تحت القهر والاستيلاء على الأشياء والمالكية لها بأي نحو كان، إذ معنى الربوبية التوحيد بالكمال والاقتدار والغلبة على الأشياء.

ثم من فوائد العلم في الدنيا العز والاعتبار عند الأخيار والأشرار، ونفوذ الحكم على الملوك وأرباب الاقتدار، فإن طباع الأنام من الخاص والعام مجبولة على تعظيم أهل العلم وتوقيرهم ووجوب إطاعتهم واحترامهم، بل جميع الحيوانات من البهائم والسباع مطيعة للإنسان مسخرة له، لاختصاصه بقوة الإدراك ومزيد التمييز، ولو تصفحت آحاد الناس لم تجد أحداً له تفوق وزيادة على غيره في جاه أو مال أو غير ذلك إلا وهو راجع إلى اختصاصه بمزيد تمييز وإدراك، ولو كان من باب المكر والحيل.

هذا وما يدل على شرافة العلم من الآيات والأخبار أكثر من أن تحصى نبذة منها قوله تعالى:

((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)).(١)

وقوله تعالى:

((هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)).(٢)

وقوله تعالى:

((وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)).(٣)

وقوله تعالى:

((وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)).(٤)

وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

(اللهم ارحم خلفائي).

قيل: يا رسول الله! من خلفاؤك؟ قال:

(الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر:

(جلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله تعالى من قيام ألف ليلة يصلي في كل ليلة ألف ركعة وأحب إليه من ألف غزوة، ومن قراءة القرآن كله اثني عشر ألف مرة وخير من عبادة سنة صام نهارها وقام ليلها ومن خرج من بيته ليلتمس باباً من العلم كتب الله عز وجل له بكل قدم ثواب نبي من الأنبياء، وثواب ألف شهيد من شهداء بدر، وأعطاه الله بكل حرف يسمع أو يكتب مدينة في الجنة وطالب العلم يحبه الله وتحبه الملائكة والنبيون، ولا يحب العلم إلا السعيد وطوبى لطالب العلم، والنظر في وجه العالم خير من عتق ألف رقبة، ومن أحب العلم وجبت له الجنة، ويصبح ويمسي في رضى الله، ولا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر ويأكل من ثمرة الجنة، ولا يأكل الدود جسده ويكون في الجنة رفيق خضر عليه السلام).

وقول أمير المؤمنين عليه السلام:

(إن كمال الدين طلب العلم والعمل به، وإن طلب العلم أوجب عليك من طلب المال، وإن المال مقسوم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم، وقد ضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله فاطلبوه).

وقوله عليه السلام:

(إذا مات مؤمن وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة ستراً بينه وبين النار، وأعطاه الله بكل حرف عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرات).

وقول سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام:

(لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه، ولو بسفك المهج وخوض اللجج).

وقول الباقر عليه السلام:

(عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد).

وقول الصادق عليه السلام:

(لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطؤون بأرجلهم، ولتنعموا بمعرفة الله وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله.

إن معرفة الله تعالى أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة، ونور من كل ظلمة، وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم، قد كان قوم قبلكم يقتلون ويحرقون وينشرون وتضيق عليهم الأرض برحبها، فما يردهم عما هم عليه شيء مما هم فيه من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى بما نقموا منهم.

قال الله تعالى:

((وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)).(٥)

فاسألوا ربكم درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم).

وعن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

(طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم في مظانه، واقتبسوه من أهله، فإن تعلمه لله تعالى حسنة، وطلبه عبادة والمذاكرة به تسبيح، والعمل به جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة إلى الله، لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبيل الجنة والمؤنس في الوحشة، والصاحب في الغربة والوحدة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء.

والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما، ويجعلهم في الخير قادة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى آرائهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسهم، وفي صلاتها تبارك عليهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس حتى حيتان البحر وهوامهم وسباع البر وأنعامه.

إن العلم حياة القلوب من الجهل، وضياء الأبصار من الظلمة وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ بالعبد منازل الأخيار ومجالس الأبرار والدرجات العلى في الآخرة والأولى.

الذكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، به يطاع الرب ويعبد، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال والحرام العلم إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء، فطوبى لمن لم يحرمه الله من خلقه).(٦)

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.
(٥) سورة البروج، الآية: ٨.
(٦) جامع السعادات للمولى النراقي: ج١، ص٨٤ – ٨٧.



شروط الإمام ومواصفاته بين الشيعة وأهل السنة

الحلقة الثالثة

مـر علينـا في الحلقتـين السـابقتين ان الشـيعة الإماميـة وأهـل السـنة اتفقوا على ان للإمـام الـذي يتـولى منصـب الخلافـة والزعامة بعد رحيل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله صفات خاصة يجب أن يتحلى بها، وقد اتفق الطرفان على بعض هذه الشروط، واختلفـوا في بعضهـا الآخر، وقـد ذكرنا في الأعداد السابقة بعض هذه الشروط وموطن الاختلاف فيها والاتفاق، والآن سنسـتعرض شـرطا جديـدا أطلـق عليـه في مصطلـح أهـل البيـت وأتباعهم بـ (العصمـة)، وأطلق عليـه في مصطلح أهل السـنة بـ (العدالة)، وسنسـتعرض أولا رأي أهـل السـنة في هذا الشـرط المهـم، وسـنؤجل البحث مـن وجهة نظـر أتبـاع أهل البيـت عليهم السـلام إلى العدد القادم إن شاء الله تعالى.

تعريف العدالة

العدالة صفة كامنة في النفس توجب على الإنسان اجتناب الكبائر والصغائر والتعفف عن بعض المباحـات الخارمة للمروءة، وهي مجموعة صفات أخلاقية من التقوى والورع والصـدق والأمانـة والعـدل ورعايـة الآداب الاجتماعية ومراعاة كل ما أوجبت الشريعة الالتـزام بـه. (راجـع الإمامـة العظمى عند أهل السـنة والجماعة لعبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي).

وبنـاء على هذا الشـرط فلا يجوز تولية الفاسق ولا من فيه نقص يمنع الشهادة قال القاضـي عياش: «ولا تنعقد لفاسـق ابتداء» (شـرح النـووي علـى صحيح مسـلم: ١٢ / ٢٢٩).

وذكـر مثلـه الحافـظ في الفتـح وقـال القرطـبي: «ولا خـلاف بين الأمـة في أنه لا يجـوز أن تعقـد الخلافـة لفاسـق» (الجامع لأحكام القـرآن: ١ / ٢٧٠، وأنظر السياسـة الشرعية لابن تيمية: ٢١).

ومن الأدلة على اشـتراط هذا الشـرط ما يلي:

الدليل الأول:

مـا ورد في قصة إبراهيم عليه السـلام حينما قال له ربه: «قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ».

عن مجاهد: «أنه أراد أن الظالم لا يكون إمامـا...». (أحـكام القـرآن للجصاص: ١ / ٦٩).

وقـال الفخـر الـرازي: «احتـج الجمهور على أن الفاسق لا يصلح أن تعقد له الإمامة بهـذه الآيـة «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ووجـه الاسـتدلال بهـا علـى مـا بينا أن قولـه: «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» جـواب لقولـه: «وَمِن

ذُرِّيَّتِي» طلب للإمامة التي ذكرها الله تعالى، فوجب أن يكون المراد بهذا العهد هو الإمامة ليكون الجواب مطابقا للسؤال فتصير الآية كأنه تعالى قال: لا ينال الإمامة الظالمون، وكل عاص فإنه ظالم لنفسه، فكانت الآية دالة على ما قلناه». (التفسير الكبير للفخر الرازي: ٤/ ٤٦).

وبنحوه ذهب الشوكاني فقال: «وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لابد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالما، ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وما تفيده الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا السياق...». إلى أن قال: «فالأولى أن يقال: إن هذا الخبر في معنى الأمر لأن أخباره تعالى لا يجوز أن تتخلف، وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثير من الظالمين». (فتح القدير للشوكاني: ١/ ١٣٨).

قال الفقيه الحنفي أبو بكر الجصاص: «فثبت بدلالة هذه الآية بطلان إمامة الفاسق وأنه لا يكون خليفة».(أحكام القرآن للجصاص: ١ / ٧٠).

الدليل الثاني:

ومنها قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...». (سورة الحجرات: ٦). فالله سبحانه وتعالى أمر في هذه الآية بالتبين عند قول الفاسق «ولا يجوز أن يكون الحكم مما لا يقبل قوله ويجب التبين عند حكمه، ولأن الفاسق لا يجوز أن يكون شاهداً فلأن لا يكون قاضياً أولى». (المغني والشرح الكبير: ١١ / ٣٨٢).

الدليل الثالث:

ومنها قوله تعالى: «وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». (سورة الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢). فالله سبحانه وتعالى ينهانا في هذه الآية عن طاعة المسرف وفي موطن آخر يأمر بطاعة الإمام في غير معصية، فوجب ألا يكون الإمام ممن قد نهى الله عز وجل طاعتهم.

الدليل الرابع:

واستدل على ذلك أيضاً بأن المقصد الأساسي من نصب الخليفة هو رفع ظلم الظالم، لا تسليط الظالم على الناس، والظالم يختل به أمر الدين والدنيا فكيف يصلح للولاية وما الولاية إلا لدفع شره! قال الجويني: «والأب الفاسق على فرط حبه وإشفاقه على ولده لا يعتمد في مال ولده فكيف يؤتمن في الإمامة العظمى فاسق لا يتقي الله ومن لم يقاوم عقله هواه ونفسه الأمارة بالسوء ولم ينهض رأيه بسياسة نفسه فأنى يصلح خطة الإسلام». (غياث الأمم: ٦٨).

وقال ابن خلدون: «وأما العدالة فلأنه منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط فيها، فكان أولى باشتراطها فيه». (مقدمة ابن خلدون: ١٩٣).

وقال البغدادي: «وأقل ما يجب له من هذه الخصلة أن يكون ممن يجوز قبول شهادته تحملا وأداء». (أصول الدين: ٢٧٧).

والحقيقة أنه إذا كان الله تعالى قد جعل العدالة شرطا في أصغر ما يتصور من الولايات والأحكام مثل حضانة الصغير والحكم في جزاء الصيد، وأن الفاسق لا يصلح أن يكون واليا على صغير أو يتيم، ولا حكماً في مسألة قياسية فكيف يصلح واليا على الأمة جمعاء، وحكما في قضايا في غاية الخطورة. (راجع الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن عمر ابن سليمان الدميجي).

أقول: ولا يخفى ان شرط العدالة عند القوم وبحسب ما صاغوه في عباراتهم هو العصمة نفسها تقريبا، والاختلاف لفظي فحسب، والعدالة بمعناها الذي سبق لا تحقق لها إلا في الشخص المعصوم من كل ذنب، فما من بني آدم إلا وقد عصى معصية كبيرة أو صغيرة، إلا الأنبياء والرسل والأئمة، وعليه فلا يحق لإنسان مهما كان أن يتقدم عليهم في الإمامة، ومن يتقدم عليهم فيها يكون غاصبا، لان هذا المنصب أعطاه من قبل الله سبحانه وكما في الآيات السابقة للأشخاص الذين لم يصدر عنهم ظلم، صغيرا كان أو كبيرا.

ولا يخفى ان أهل السنة ذهبوا إلى اشتراط العدالة بالمعنى الذي تقدم من حيث الوجهة النظرية البحتة، وإلا فهم يقدمون ومن حيث الجنبة العملية من يصدر عنه الذنب ويفعل الكبائر ويرتكب الموبقات، فما من خليفة من خلفائهم وأئمتهم باستثناء أمير المؤمنين عليه السلام إلا وقد ارتكب محرما وفعل فسقا، بل وبعضهم قتل النفس المحترمة وشرب الخمر وزنى كمعاوية ويزيد وملوك بني العباس وأمية.

لذلك وللخروج من هذا المأزق العلمي الخطير أسسوا قاعدة جديدة اسمها قاعدة الاضطرار، فجوزوا ولاية الفاسق الفاجر فيما لو تعذر وجود العادل، فإذا اضطرت الأمة إلى ولاية الفاسق «جاز ذلك، ولذا قال ابن عبد السلام: لو تعذرت العدالة في الأئمة قدمنا أقلهم فسقا، قال الأذرعي: وهو متعين إذ لا سبيل إلى جعل الناس فوضى». (نهاية المحتاج للرملي: ٧ / ٤٠٩).

وقد كان احمد بن حنبل يقول: «ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه، برّا كان أو فاجراً فهو أمير المؤمنين». (الأحكام السلطانية لأبي يعلى: ٢٠).

وكان يقول أيضا: «فإن كان أميرا يُعرَف بشرب المسكر والغلول يغزو معه، إنما ذلك له في نفسه». (نفس المصدر السابق).

وهذه القاعدة واقصد بها قاعدة الاضطرار الى ولاية الفاسق منفية عندنا نحن الإمامية، لأننا نعتقد وبالدليل أن الأرض لا تخلو من إمام معصوم لحظة واحدة وهو المسمى في الأحاديث والروايات بالحجة ولولاه أي الحجة لساخت الأرض بأهلها، ومع وجوده تبطل قاعدة الاضطرار إلى إمامة الفاسق لان مع وجود المعصوم لا اضطرار إلى تعيين ذلك الفاسق، وسيأتي تفصيل أكثر للموضوع في العدد اللاحق إن شاء الله تعالى.



عدي بن حاتم الطائي

أسمه وكنيته

هو عَدِيّ بن حاتم الطائيّ ابن عبد الله... ابن يَعرُب بن قحطَان. يُكنّى بـ(أبي طَريف) و(أبي وَهب).

ولادته

بناءً على أنّ عمره حين وفاته ١٢٠ سنة، تكون ولادته ما بين سنة ٥١ ـ ٥٤ قبل الهجرة النبويّة المباركة.

نشأته

نشأ عَدِيّ بن حاتم منذ طفولته في الجاهليّة وسط بيت يشَخص فيه والده المعروف بالكرم؛ فقد كان أحد الثلاثة الذين ضُرب بهم المثَل في الجود زمن الجاهليّة. تزوّج حاتم امرأة تُدعى النَّوار، كانت تلومه على كرمه، فتزوّج ماويّة بنت عفزر من بنات ملوك اليمن وكانت تحبّ الكرم وتوقّر الكرماء، فأنجبت له عَدِيّاً.

وقد ورث عَدِيٌّ تلك الخصال الحميدة عن أبيه.. الذي روى فيه الإمامُ الرضا عليه السّلام أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال لعديّ: رُفع عن أبيك العذاب بسخاوة نفسِه.

ونشأ على تلك المكارم حتّى هذّبها له الإسلام، فانتهت إليه رئاسة طيّئ بعد أبيه..

وفي ذلك يقول الشاعر:

شابَهَ حاتِماً عَدِيٌّ في الكَرَمْ
ومَن يُشابهْ أبَهُ فما ظلَمْ

ومن أخبار جُود عَدِيّ أنّه سمع رجلاً من الأعراب يقول: يا قوم، تصدّقوا على شيخ مُعيل، وعابرِ سبيل، شَهِد له ظاهرُه، وسمعَ شكواه خالقُه.. بدنُه مطلوب، وثوبُه مسلوب.

فقال له عديّ: مَن أنت؟ قال: رجلٌ من بني سعد في ديةٍ لَزِمَتْني. قال: فكم هي؟ قال: مائة بعير، قال عديّ: دونَكَها في بطن الوادي.

وأرسل الأشعث بن قيس إلى عَديّ يستعير منه قُدورَ حاتم أبيه، فأمر بها عديّ فمُلئت، وحملها الرجال إلى الأشعث، فأرسل الأشعث إليه: إنّما أردناها فارغة، فأرسل إليه عديّ: إنّا لا نُعيرها فارغة.

ومن هنا وصفه ابن عبد البَرّ بأنّه: (كان سيّداً شريفاً في قومه، فاضلاً كريماً، خطيباً حاضر الجواب). (الاستيعاب لابن عبد البر ج٣ ص١٠٥٧).

وقال ابن حجر العسقلانيّ يعرّفه: (وَلَد الجواد المشهور، أبو طَريف، وكان جواداً. وقال ابن الأثير: وكان جواداً شريفاً في قومه، معظَّماً عندهم وعند غيرهم). (الاصابة لابن حجر ج٤ ص٣٨٨).

وقال الزركليّ: (عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو وهب وأبو طريف: أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء. كان رئيس طيئ في الجاهلية والإسلام. وقام ابن الأثير: خير مولود في أرض طيئ وأعظمه بركة عليهم). (الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٤ ص٢٢٠).

صفته

كان عديّ بن حاتم رجلاً جسيماً، أعور..ولم يكن العَوَر خِلقةً فيه، بل طرأ عليه أثناء حروبه إلى جانب أمير المؤمنين عليه السّلام، فقد شهد واقعة الجمل وفيها ذهبت إحدى عينيه، وشهد وقعة صِفّين فذهبت فيها الأُخرى.

ويبدو أنّ ذهاب العين لم يكن كاملاً، لأن عديّاً اشترك في معركة النهروان وعاصر ما بعدها من الأحداث، لكنّ العرب يعبّرون عن انقلاب الجفن وما شابهه من العيوب

الـتي تُصيب العـين ولا تذهـب بالبصر كلّه بـ (العَوَر).

قصّة إسلامه

كان عديّ قبل البعثة على دين النصرانيّة أو الركوسـيّة (وهـو ديـن بـين النصرانيّـة والصابئيّة)، ولم يكن وثنيّاً، وكانت له زعامة قومـه ورئاسـتهم. وقـد حـاول أن يحتفـظ بمنصبـه في طيّئ وبـين قبائل العـرب، لكنّ الخُلقَ النبويّ جعله يدخل الإسـلام ويعتنقه ويعتقده اعتقاد قلب وجَنان.

وكان من قصّة إسـلامه أنّه أعدّ من إبله أجمالاً سِماناً أوصى بها غلامَه أن إذا سمع بجيـش النبيّ صلّـى الله عليه وآله قد وطئ البـلاد أن يخبره. فلمّـا قدم الجيش رأى أن يلتحـق بأهـل دينه من النصارى في الشـام، فسـلك الجَوْشـيّة وخلّـف بنتـاً لحـاتم هي (سفّانة) التي قَدمت في سبايا من طيّئ.

وقد مرّ رسـول الله صلّى الله عليه وآله بالسبايا فقامت إليه. وكانت جَزلة. فقالت: يا رسـول الله، هَلَك الوالد، وغـابَ الوافد، فامنُنْ علَيَّ مَنّ الله عليك. قال: ومَن وافدُكِ؟ قالـت: عَـدِيّ بن حاتم. قال: الفارّ من اللهَ ورسوله؟! قالت سفّانة: ثمّ مضى رسول الله وتركني، حتّى إذا كان من الغد مرّ بي، فقلت له مثل ذلـك، وقال لي مثل ما قال بالأمس. حتّـى إذا كان بعـد الغـد مرّ بي وقد يئسـتُ منـه، فأشـار إلَـيّ رجُل من خلفـه أن قومي فكلّميـه. قالت: فقمت إليه فقلت: يا رسـول الله، هلـكَ الوالد وغاب الوافد، فامنن علَيّ مَـنّ الله عليـك. فقال صلّـى الله عليه وآله: قد فعلـتُ، فلا تَعجلي بخـروج حتّى تجدي مِـن قومـك مَـن يكون لـك ثقةً حتّـى يبلّغك إلَى بـلادك ثـمّ آذنيني فسـألتُ عن الرجل الـذي أشـار إلَـيّ أن أكلّمه، فقيـل: عليّ بن أبي طالب.

فقالـت: فجئـتُ رسـولَ الله صلّـى الله عليـه وآلـه فقلـت: يا رسـول الله، قـد قَدِم رهط من قومي لـي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكسـاني رسـول الله صلّـى الله عليـه وآله وحملـني وأعطانـي نفقـة، فخرجـتُ معهم حتّـى قدمتُ الشـام. قال عديّ: فـوالله إنّي لَقاعدٌ في أهلي إذ نَظَرتُ إلى ظَعينةٍ تصوب إلَـيّ تؤمّنا، فقلت: ابنة حاتم، فإذا هي هي، فلمّا وقَفَت علَيّ انسـحلت تقـول: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك وتركتَ بقيّة والـدك وعورتك! قلـت: أي أُخيّة، لا تقولي إلاّ خيراً، فوالله مالي من عُذر، لقد صنعتُ ما ذكرتِ.

قال: ثمّ نزلت فأقامت عندي، فقلت لها ـ وكانـت امـرأة حازمـة ـ: مـاذا تَرَين في أمر هـذا الرجل؟ قالـت: أرى والله أن تلحق به سـريعاً، فإن يكن الرجل نبيّاً فَللسـابق إليه فضلـه، وإن يكن ملكاً فلن تذلّ في عزّ اليمن وأنت أنت. قلت: والله إنّ هذا هو الرأي.

ويخـرج عـديّ حتّـى يقـدم علـى النبيّ الأكـرم صلّـى الله عليـه وآله وسـلّم، فيرى فيـه تواضعاً ورحمة، ويراه يعلـم ما يُجهَل.. فيعرف أنّه نبيّ مرسل، فيُسلِم.

وكان للمعاملـة الطيّبـة الـتي عامل بها الإمـام علـيٌّ عليـه السّـلام مَـن سـباهم، وللخُلـق النبـويّ الرفيـع مع عوائل الشـرف والكـرم.. أكـبر الأثـر في دخـول النـاس في الإسـلام، يقـول عديّ نفسـه بعـد أن ألقى النبيّ له وسـادة وأجلسـه عليهـا وجلس هو صلّـى الله عليه وآله على الأرض: فما رمتُ حتّى هداني الله للإسلام، وسرّني من إكرام رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وقبل ذلك قال لمّا قدم عليه: فقام رسول الله صلّـى الله عليـه وآلـه فانطلـق بي إلى بيته، فوالله إنّه لَعامدٌ بي إليه إذ لَقيتْه امرأة ضعيفة كبيرة، فاستَوقَفتْه فوقف لها طويلاً تُكلّمه في حاجتها، فقلتُ في نفسي: والله ما هذا بملك. وكان وفوده على النبيّ صلّى اَلله عليه وآله في شـعبان سـنة ٩ هجريّة، وقيل سنة ١٠ هجريّة.

وقائع وأدوار

كان لعديّ بن حاتم أدوار مهمّة أسـهمت في تغيير وجه الأحداث، منها:

أولا: ثباتـه هو وقومه وقبيلته طيّئ على الإسـلام ولم يرتدّوا بعد وفاة النبيّ الأعظم صلّـى الله عليـه وآلـه وسـلّم في بعـض من ارتدّ.

ثانيا: شهوده فتحَ العراق ووقعة القادسيّة ووقعـة مِهران، ويـوم الجِسـر.. وكان له فيه بلاءٌ حَسَن.

ثالثـا: وثوبـه علـى الوليد بـن عُقْبة حين شـرب الخمر وأسـاء السـيرة، فشـارك في عزله عن ولاية الكوفة.

رابعـا: كان مـن المعارضـين للسياسـة الخاطئة التي سَرَت أيام عثمان.

خامسـا: كان مـن المسـارعين لبيعـة أمـير المؤمنـين عليه السّـلام والمناصرين له والمؤازرين، وكان له الباع الأطول في تحشيد القـوات من طيّئ وتسـييرها لأمير المؤمنين عليه السّلام.

سادسـا: وفي معركـة الجمَـل.. أنـاط به أمـير المؤمنـين عليه السّـلام مواقـع مهمّة، فجعلـه ومحمّـدَ بـن أبـي بكر علـى القلب، محمّـداً علـى الخيل وعديّـاً علـى رجّالتها. كمـا جعله في موقع آخر علـى خيل قُضاعة ورجّالتهـا، ثمّ اشـترك في عَقـر الجمَل هو والحمُاة حتّى عَرقَبوه.

وفي صفّـين.. أمّـره الإمـام علـيّ عليـه السّلام علَى طيّئ. حتّى إذا كان التوادع إلى أن ينسـلخ المحرّم، أرسل أمير المؤمنين عليه السّـلام عديّاً في جماعة ليدعوَ معاوية إلى الطاعة. فقام عديّ مقاماً مشكوراً أثنى فيه على أمير المؤمنين عليٍّ عليه السّلام، وهدّد معاويةَ بأمرِّ القتال وأشدّه.

ثمّ قـاد الجيـش العلـويّ وجحافلَه ضدّ الجيش الأُموي بقيادة عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد يوم ٨ صفر سنة ٣٧ هجريّة، وقد حشّـد معاوية أشـدّاءَ رجاله، فـكان النصر حليـف عديّ، وفرّ عبـدِ الرحمنِ وتوارى في العَجاج وعاد إلى معاوية مقهوراً.

سـابعا: وعندمـا بايـع النـاسُ الإمام الحسن عليه السّلام.. خطب الناسَ ودعاهم إلى قتـال معاوية فتخاذلـوا، فقام عديّ بن حـاتم فخطبهـم ووبّخهـم، ثـمّ كان أوّل من سمح بطاعته وأبدى استعداده، حيث مضى إلى النُّخيلة فكان أوّل الناس عسكراً.

ثامنا: كان عديّ من المؤيّدين لثورة حُجْر بن عَديّ الكنديّ وأصحابه، فتوسّـط ودافع عنه عند زياد بن أبيه دون جدوى، ثمّ تعاطف بعـد مقتله مـع عبدالله بن خليفـة الطائي ـ أحـد أصحـاب حجر ـ تعاطفاً شـديداً وأبى أن يسلّمه لابن زياد.

وفاته

تراوح المؤرّخون في تحديد وفاة عديّ بن حاتم بين أربع سـنين: مـن ٦٦ ـ ٦٩ هجريّة، وبعضهم لم يحدّد السـنة وإنّمـا اكتفى بأنّه تُوفّي في أيّام المختار الثقفيّ، علماً أنّ المختار كانـت حكومتـه علـى الكوفـة ثمانية عشـر شـهراً: من ربيع الأوّل سـنة ٦٦ إلى النصف من شهر رمضان سنة ٦٧ هجرية.

نقصان الفرات حين طغى وإنطاق الحيتان بالتسليم لأمير المؤمنين عليه السلام

قال ابن شهر آشوب: واستفاض بين الخاصّ والعامّ أنّ أهل الكوفة فزعوا إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ من الغرق لمّا زاد الفرات (فأتى ـ عليه السلام ـ بشاطئ الفرات)، وأسبغ الوضوء وصلّى منفرداً، ثمّ دعا الله، ثمّ تقدّم إلى الفرات متوكّئاً على قضيبٍ بيده حتى ضرب به صفحة الماء، وقال:

انقص بإذن الله ومشيئته، فغاض الماء حتى بدت الحيتان، فنطق كثير منها بالسلام عليه بإمرة المؤمنين، ولم ينطق منها أصناف من السمك، وهي الجرّي والمارماهي والزمّار، فتعجّب الناس لذلك وسألوه عن علّة ما نطق وصمت ما صمت.

فقال ـ عليه السلام ـ: أنطق الله (لي) ما طهر من السموك، وأصمت عنّي ما حرّمه ونجّسه وأبعده.

وفي رواية أبي (محمد) قيس بن أحمد البغدادي وأحمد بن الحسن القطيفيّ، عن الحسن بن ذكروان الفارسي الكندي أنّه ضرب (الفرات ضربة) بالقضيب فقال: اسكن يا أبا خالد، فنقص ذراعاً، فقال أحسبكم؟ فقالوا: زدنا (يا أمير المؤمنين) فبسط وطأه وصلّى ركعتين، وضرب الماء (ضربة) ثانية، فنقص الماء ذراعاً، فقالوا: حسبنا يا أمير المؤمنين.

فقال: والله لو شئت لأظهرت (لكم) الحصى (وذلك كحنين الجذع وكلام الذئب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ).

وعن أبي بصير: عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: مدّ الفرات عندهم بالكوفة على عهد أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهو بها (مقيم) مدّاً عظيماً حتى طغى وعلا وصار كالجبال (الرواسي) بإزاء شرفات الكوفة، وكان أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في ذلك اليوم قد خرج على ظهر النجف ومعه نفس من أصحابه، فنظر إلى بطن الوادي، وقال للنفر الذين كانوا معه: إنّي أرى النجف يخبر أنّ الماء قد طغى في الفرات حتى أوفى على منازل الكوفة، وأنّ الناس قد ضجّوا، وفزعوا إلينا، قوموا بنا إليهم.

فأقبل هو والنفر الذين كانوا معه إلى الكوفة، فتلقّاه أهلها يستغيثون، فقال لهم: ما شأنكم طغى عليكم الماء من الفرات؟

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: لا بأس عليكم وما كان الله ليعذّبكم وأنا فيكم، وسار يريد الفرات والناس حوله حتى ورد على مجلس لثقيف، فتغامزوا عليه، فأشار إليه بعض أحداثهم، فالتفت إليهم ـ عليه السلام ـ مغضباً، فقال: معاشر ثقيف صغار الخدود، (لئام الجدود) قصار العمود، بقايا ثمود، عبيد وأبناء عبيد، من يشتري ثقيف برغيف، فإنّهم (عبيد) زيوف.

فقام إليه مشائخهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنّ هؤلاء شبّان لا يعقلون، فلا تؤاخذنا، فو الله إنّا لهذا كارهون، وما أحد يرضى به فاعف عنّا، عفا الله عنك.

فقال (لهم أمير المؤمنين) ـ عليه السلام ـ: لست أعفو عنكم (إلاّ) على أن لا أعود إلى الفرات، أو تهدوا مجلسكم هذا، وكلّ منظرٍ وروشن وميزاب مصبّ إلى طريق المسلمين، وتسدّوا بلاليعكم فيها.

قالوا: نفعل يا أمير المؤمنين، وكسروا مجلسهم، وفعلوا كما أمرهم به، وسار حتى انتهى إلى الفرات وهو يزجر بأمواجه كالجبال، فسقط الناس لوجوههم وصاحوا: الله الله يا أمير المؤمنين في رعيّتك، فنزل وأخذ قضيب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقرع الفرات قرعة واحدة، فقال: اسكن يا أبا خالد، فانزجر الماء حتى ظهرت الأرض في بطن الفرات، حتى كأنّها لم يكن فيها ماء، وصاح الناس: يا أمير المؤمنين الله (الله) في رعيّتك لئلاّ يموتوا عطشى.

فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: اجرِ على قدرٍ يا فرات لا زائداً ولا ناقصاً، ووجد على الجِسر فوق الماء رمّانة وقعت على الجسر عظيمة لم ير مثلها في الدنيا، فمدّ الناس أيديهم ليحملوها إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ (فلم تصل أيديهم، فسار إليها أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ) فمدّ يده فأخذها، فقال: هذه رمّانة من رُمّان الجنّة لا يمسّها ولا يأكل منها إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ فلولا ذلك لقسمتها عليكم في بيت مالكم.

وفي ذلك اليوم كانت قتلة عبد الله بن سبأ والعشرة الذين قالوا ما قالوا، وقتلهم أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في (صحراء) أحد عشر.[1]

------

(١) مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني: ج٢، ص١٠٥ ـ ١١٠.

شرح الصحيفة السجادية

الحلقة الثانية

الدعاء الأول

(الحمد لله الأول بلا أول كان قبله.....)

(الأول بلا أول كان قبله)

الأوّل: ضد الآخر، وأوّل أصله أوءل على أفعل مهموز الوسط، كما ذهب إليه الجوهري، والعلماء المراجيح في فنون علم الأدب لا ووءل على فوعل كما زعمه بعض الأدبيين.

فقوله عليه السلام:

(بلا أول).

إما بفتح اللام على النصب، كما في رواية (س) على أنه أفعل التفضيل، أو أفعل الصفة على اعتبار الوصفيّة، وإمّا بالتنوين على الجرّ، كما في أصل الرواية على أنّه أفعل الصفة، منسلخا عن معنى الوصفيّة.

وضابط القول على ضرب من التفصيل: أنّك إذا أخذته أفعل التفضيل لم يسعك أن تصرفه بوجه من الوجوه؛ إذ لا يتصوّر أن ينسلخ حينئذ عن كونه وصفاً لموصوف أصلاً، وليس يسوغ استعماله إذن إلاّ بتقدير (من) واعتبار المفضّل عليه في جهة القول، أو في طيّ الطيّة.

وأمّا إذا أخذته أفعل الصفة، فإن اعتبرت فيه معنى الوصفية وجعلته وصفا امتنع أن ينصرف، تقول: حججت عاماً أوّل وفي عام أوّل بالنصب فيهما، وهذا عامٌ أوّل بالرفع.

وإن سلخته عن الوصفيّة واستعملته على أنّه ظرف، كان مبنيّاً على الضمّ أبداً، كما (في) سائر الظروف المقطوعة بالإضافة، فتقول: إن أتيتني أوّل فلك كذا.

وإن استعملته بمعنى البداءة والابتداء صرفته وأعربته، تقول: ليس له أوّل وآخر على تنوين الرفع، أي: ليس لوجوه بداءة وابتداء، ولا نهاية وانتهاء.

وتقول في محلّ النصب، أثبت له أوّلاً وآخر، أي ابتداءً ومبدءاً ومنتهىً، وفي مقام الجرّ: الدائرة خطّ مستدير من غير أوّل وآخر، أي: من غير بداية ونهاية ومبدأ ومنتهى بحسب الوضع.

فإذن قولك: قلت لك أوّلاً وآخراً، معناه ابتداءً وانتهاءً، والنصب على التمييز، أو على أنّه منزوع الخافض، لا على الظرف كما يتوهّم.

قال في مجمل اللغة: الأوّل ابتداء الشيء، وربّما يستعمل بمعنى آخر وينصرف أيضاً كما تقول: أنعمت عليّ أوّلاً وآخراً، أي: قديما وحديثاً، وكذلك أفعل الصفة إذ جرّد عن الوصفيّة، وجعل علما شخصياً مثلاً، كان ممتنع الصرف.

ثمّ إذا نكّر وانسلخ عن العلميّة انصرف، ونوّن على النصب أو الرفع أو الجرّ، تقول: رأيت أحمداً من الأحمدين، وجاءني أحمدٌ من الأحمدين ومررت بأحمدٍ من الأحمدين.

وإذا تحقّقت ما تلوناه عليك استبان لك مغزى قول المغرب: فعلت هذا عاماً أوّل على الوصف، وعام الأوّل على إضافة، وأيّ رجل دخل أوّل فله كذا، مبنيّ على الضّمّ، كما في من قبل ومن بعد، ومعناه دخل أوّل كلّ أحد، وقبل كلّ أحد، وموضعه باب الواو.

وكذلك قول المفردات والفائق وغيرهما: ويستعمل أوّل ظرفاً فيبنى على الضمّ، نحو جئتك أوّلٍ، ويقال: بمعنى قديم نحو جئتك أولاً وآخرا، أي: قديما وحديثا.[1]

وقيل: (الأول) على وزن أفعل - تأسيس بنائه من (همزة وواو ولام) على مذهب جمهور البصريين، لكنهم اختلفوا، فأكثرهم على أنه من (وول) - على وزن فعل -، فأصله على هذا (أَوَوَل)، أدغمت الفاء في العين، قالوا: ولم يستعملوا هذا التركيب إلاّ في الأول ومتصرفاته.

وبعضهم على أنّه من (آل يؤول أولا)، أي: رجع، لأن كل شيء يرجع إلى أوله، فهو بمعنى المفعول - كأشهر وأحمد -.[3]

وقوله عليه السلام: (بلا أول كان قبله).

متعلق بمحذوف حالا عن الأول، و(الباء) للملابسة، أي: متلبّسا بلا أول، و(لا) عند الكوفية اسم بمعنى غير.

فقيل: نقل إعرابها إلى ما بعدها - لكونها على صورة الحرف -، وقيل: إن الجار داخل عليها نفسها، وإن ما بعدها خفض بالإضافة، والآخر الأول بكسر الخاء على وزن فاعل، وهو خلاف الأول.

قيل: والحقّ أنّ أوليته – تعالى – عين آخريته، وآخريته عين أوليته من غير اختلاف في ذاته وصفاته؛ بخلاف أوليتنا، لأن من كان منا أولا لا يكون آخرا، وكذا بالعكس.

بيان ذلك: إن الأولية والآخرية قد يكونان بمعنى كون الشيء فاعلا وغاية، وقد تقرر في وضعه أن ذاته - تعالى - غاية الغايات ونهاية الرغبات، وليس لفعله - سبحانه - لمية غير ذاته، وأنه - تعالى - تامٌ بذاته من جميع الجهات والحيثيات واحد لا كثرة فيه بوجه من الوجوه.

ولا شيء قبله ولا معه ولا في مرتبة ذاته، وذاته – تعالى - مع وحدته متمّ فاعليته؛ فذاته بذاته فاعلٌ وغايةٌ للوجود كلّه؛ وإنّ جهة فاعليّته بعينه هي جهة غائيّته.

فأوليته عين آخريته - سبحانه - من حيث أنه يفيد الأشياء فاعل لها، ومن حيث افادته لوجودها - لأجل علمه بنظام الخير فيها، الذي هو عين ذاته المحبوبة لذاته - غاية، وهو من هذه الحيثية الداعية إلى الفعل متقدم على الاشياء وأول؛ ومن حيث كونه خيرا وفائدة يقصده الأشياء ويتشوّق إليه طبعا وإرادة، متأخر عنها وآخر، كما هو شأن الغايات من تقدمها على الأفعال وتأخرها باعتبارين.

فثبت أن الباري - جلّ اسمه - أول الأوائل من جهة كونه فاعلا للأشياء وعلّة غائية وغرضا لها؛ وهو بعينه آخر الأواخر من جهة كونه غايةً وكمالاً يقصده الأشياء وينحو نحوه ويتشوّق إليه طبعاً وإرادة، فهو - تعالى - أول بما هو آخر، وآخر بما هو أول.

ويؤكد ما ذكرنا قول محمد بن يعقوب الكليني - رحمه الله - باسناده عن الميمون البان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام وقد سئل عن قوله عزّ وجل: (هو الأول والآخر)، فقال عليه السلام:

(الأول لا عن أول كان قبله ولا عن بدء سبقه، والآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين،ولكن قديم أول آخر لم يزل ولا يزال بلا بدء ولا نهاية، لا يقع عليه الحدوث، ولا يحول من حال إلى حال، خالق كلّ شيء).[4][5]

---

(١) شرح الصحيفة السجادية للسيد محمد باقر المشتهر بالداماد: ص٧٧ - ٧٨.

(٣) لوامع الأنوار العرشية في شرح الصحيفة السجادية للسيد محمد باقر الحسيني: ص٢١٨.

(٤) التوحيد للكليني: ص٣٠٦.

(٥) نور الأبصار في شرح الصحيفة السجادية للسيد نعمة الله الجزائري: ص٢٥ - ٢٦.



اهتمّ سبحانه بشأن الوالدين وشدّد على حقوقهم ورعايتهم، حتّى نجده في ثلاث آيات قرن ذلك بنفسه فبعد أن حصر العبادة به تعالى قضى بالإحسان للوالدين، وكذلك قرن الشكر له بالشكر لهما.

حتّى قال إمامنا الصادق عليه السلام: (مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الوالِدَين لَمْ يَشْكُرِ اللّه).[١]

فالإحسان إلى الناس ابتداءً من مستلزمات الإسلام فكيف إذا كان جزاءً لإحسان تقدّمه، ويتأكد هذا الإحسان في حق الرحم وبالأخص في حق الأبوين، ويشتد التأكيد ويتعمق فيمن كانت نعمه أظهر ولها صلة بالحفاظ على أصل وجود الشخص نفسه.[٢]

ثمّ أوصى سبحانه في ثلاث آيات أخرى بالوالدين وصيّة حسنة أو حسنى، وبين ذلك يعطيهما سبحانه وتعالى حقّاً عظيماً واحتراماً كبيراً كما سوف نفصّله.

وحديث إمامنا علي بن الحسين عليه السلام يفصّل قوله تعالى:

((حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ))[٣]

حملته وأطعمته من نفسها ووقته بكلّ جوارحها، تدافع عنه بكلّ ما أوتيت من قوّة وأساليب.

يقتصر الإمام عليه السلام فيما يتعلق بحقّ الأم على بيان آلامها وتضحياتها، ولعله عليه السلام يترك للإنسان أن يقدر كم هي مسؤوليته أمام أمه التي عانت وتحملت كل هذه الآلام، وبذلت كل هذا العطاء من أجل أن ترعى ولدها وتنشئه وتحافظ عليه.

فمن يستطيع أن يعوض الأم عن آلامها حين حملها الجنين وهي تغذوه من دمها ويشاركها في طعامها وشرابها، فينغص عليها راحتها ونومها وكل ملذاتها، وفي إشارات القرآن المعبرة ما يكفي لإدراك معاناة الأم في حملها ووضعها، وذلك في قوله تعالى:

((وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا))(٤)

وفي آية أخرى:

((وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ))(٥)

ولا يخفى تعليق الوصية بالوالدين على ما تعانيه الأم من آلام الحمل والولادة باعتباره من أبرز مصاديق التضحية، وتحمل الآلام.

عن بريدة أن رجلاً قال: يا رسول الله إني حملت أمي على عنقي فرسخين في رمضاء شديدة لو ألقيت فيها بضعة من لحم لنضجت! فهل أديت شكرها؟ قال: «لعله أن يكون بطلقة. قال:

(لا ولا طلقة)(٦).

فالأم.. الكلمة العذبة.. الكلمة الندية.. العطف.. الحنان.. الحب.. الإخلاص.. التضحية.. الإيثار.. الإنسانية برحابتها وسعتها.. العطاء بمدلوله الإسلامي الرباني.

في الأم تتجسد كل المعاني الخيرة، فهي تقدّم دون مَنّ ولا جزاء بل تقدّم عن نفس راغبة في العطاء.. تقدّم لأبنائها حياتها وراحتها واطمئنانها وهدوءها وسعادتها.. تقدم قلبها ونفسها وكل ما تطاله يدها... .

وكلام الإمام عليه السلام يحمل الكثير من الإيحاء بصعوبة الحمل وما يرافقه من آلام وعطاء، إذ يقول عليه السلام:

«حملتك حيث لا يحمل أحدٌ أحدا، وأطعمتك من ثمرة قلبها ما لا يطعم أحدٌ أحدا، وإنها وقتك بسمعها وبصرها... محتملة لما فيه مكروهها وألمها وثقلها وغمها..).

إنها حملت وليدها وهو جنين، حملته بسرور وفرح وابتهاج، وأطعمته من ثمرة قلبها وهذا شيء لا يقوم عليه أحد غيرها، كان يتغذى منها ويرتوي من نفسها، فكانت تضعف ليقوى وتذبل ليشتد وينهض، إنها شغلت سمعها وبصرها ويدها ورجلها وبشرها وجميع جوارحها في سبيل وليدها، حيث استنفرت كل ذلك من أجله لئلا يتضرر أو يتأذى أو يمسه سوء من جراء شيء يناله بغتة ودون انتباه منها... .

إنّها سخّرت لصالحه سمعها خوفاً عليه من صيحة أو صوت يسبب موته، وكذلك سخّرت بصرها ويدها ورجلها دفعاً لطارئ قد يطرأ من الخارج فيصيبه بسوء، بل سخّرت كل جوارحها لتدفع عنه كل آفة أو مصيبة.

وكلّ ما أوتي به الإنسان من خير وفضائل في الحياة الدنيا، فإنّ أصله وأساسه هو الوالدان، فينبغي للإنسان أن لا ينسى ذلك، ويستمر في الدعاء لوالديه في صلواته، وأن يشكر الله والوالدين على هذه النعم التي أنعما عليه بها(٧).

جاء في بحار الأنوار عن العلامة المجلسي أعلى الله مقامه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضر شاباً عند وفاته فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

(قل لا إله إلا الله، قال: ماعتقل لسانه مرارا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لامرأة عند رأسه: هل لهذا أم؟ قالت: نعم أنا أمه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: أفساخطة أنت عليه؟ قالت: نعم، ما كلمته منذ ست حجج، قال صلى الله عليه وآله وسلم لها: إرضي عنه، قالت: رضي الله برضاك يا رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قل لا إله إلا الله، قال: فقالها.

ورنّ جرس الحقيقة على لسان الطفل، يصور حنان الأم والعطف الذي تبديه فأنشأ قائلاً:

أحب الناس لي أمي
ومن بالروح تفديني
فكم من ليلة قامت
على مهدي تغطيني
بصوت هادئ عذب
وإنشاد تغنيني
تخاف عليّ من بردٍ
ومن حر فتحميني
ومن ألم ومن مرض
أناديها فتأتيني
بروحي سوف أفديها
كما بالروح تفديني
وأسعى في هناءتها
كما تسعى وترضيني

الله سبحانه وتعالى جعل إطاعة الوالدين بعد إطاعته سبحانه، فعلى الذرية إطاعة الوالدين في جميع الأمور إلا الشرك بالله تعالى، وكلما أحسن إلى والديه، كذلك ذريته يحسنون له وكلما أساء لوالديه فتكون الإساءة من ذريته له.

قال المرحوم الشيخ عبد الزهراء الكعبي:

مررت في طريقي على بستان فرأيت الناعور الذي يربط بحمار أو بغل أو فرس مربوطاً بإنسان كهل يدور حتى يمنح الماء إلى الساقية فتأثرت لهذا المنظر تأثراً بالغاً.

وأخذت أصيح من في البستان، وإذا بشاب جاء وقال: ماذا تريد؟ قلت: من هذا ومن أنت؟ قال: إني ابن هذا الرجل، فتقدمت إلى الولد أريد تأديبه لكن الولد هرب وفككت رباط الوالد عن الناعور وجلست معه أسليه وأخذت لأهاجم الولد فقال الوالد: يا شيخ عبد الزهراء - وكان يعرفني - إن هذا جزائي العادل فإني ربطت والدي بنفس هذا الناعور أبان كنت شابا وكان والدي كهلا وقد توفي والدي (رحمه الله) قبل مدة فورثت البستان وكبر هذا الولد وأخذ يفعل بي الفعلة التي كنت أفعلها مع والدي(٨).

---

(١) شجرة طوبى: ج٢، ص٣٧٢.

(٢) شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، للسيد عباس الموسوي: ص١٢٤.

(٣) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٥) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٦) كنز العمال: ج١٦، ص٤٧٢.

(٧) فقه الأسرة وآدابها للسيد علي عاشور: ص٨.

(٨) الأخلاق والآداب الإسلامية لعبد الله الهاشمي: ص١٢٠.

طلب الحوائج من اللّه سبحانه وتعالى

يقول آية اللّه السيد رضي الشيرازي: قبل عشرين عاماً تقريباً، جاء المرحوم آية اللّه ملّا علي الهمداني إلى طهران لأجل العلاج، فذهبت لعيادته مع أحد الأصدقاء، جلسنا عنده ثلاثين دقيقة تقريباً وكان حديثنا يدور حول مسألة فقهية، وبعد ذلك عرفني له صديقي قائلاً: إن هذا هو الشيرازي.

ولكن المرحوم الهمداني ما استذكر شيئاً في وقته، ولما ودّعناه وتقدمت نحو الباب استوضح عني من صديقي، فقال له: إنه السيد رضي حفيد المجدّد الشيرازي الكبير!

فناداني المرحوم الهمداني، واعتذر من عدم تذكره حالاً، ثم قال: اجلس لأسرد لك قصّة عن جدّك الشيرازي:

(كنت في طهران أدرس عند المرحوم الشيخ عبد النبي النوري، نقل لي الشيخ أنه لما كان يحضر دروس المرحوم جدّك في سامراء كان يأتيه بعض المال من أهله من مدينة (نور) فمع راتبه الذي يعطيه المجدّد الشيرازي كان يسدّ حوائجه ولا يزيد.

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى انقطع المال الذي كان يأتيه من أهله، في الوقت الذي كان قد دفع لكاتب يستنسخ له كتاب (وسائل الشيعة)، ـ وهو كتاب ضخم طُبع حديثاً في عشرين جزء لا يستغني عنه طالب العلوم الدينية ـ، فاستقرض الشيخ لذلك مبلغاً قدره مائة وعشرون (توماناً).

وعلى أثر ذلك صار الشيخ كاسف البال لا يدري كيف يسدّد هذا الدين الثقيل ومن أين يؤمّن سائر حاجاته، إذ أن ما يعطيه أستاذه المجدّد الشيرازي لا يكفيه ولا يغطي حاجاته كلها، فأخذ الشيخ في ذلك اليوم يصلي في حجرته، ثم توسّل بأهل البيت عليهم السلام وشكا إليهم حاله، وخصّص الخطاب إلى الإمام الحجة بن الحسن المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

يقول الشيخ: غلبني النعاس وبينما أنا بهذه الحالة استغرقتُ في النوم وإذا بي أرى في المنام جمال سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، كان جالساً وعلى رأسه الشريف عمامة خضراء.

دخلتُ عليه مسلّماً، فردّ عليّ السلام وقال:

(يا شيخ عبد النبي، هناك مائة وعشرون (توماناً)، خذها وسدّد بها دينك)!

فاستيقظتُ من النوم وبينما كنت أتأمّل في رؤياي هذه، وإذا بالباب يُطرق! قمتُ وفتحتُ الباب، وكان الطارق (نصر اللّه) الخادم الخاص للمجدّد الشيرازي، فقال: إن السيد يطلبك! فأسرعتُ ودخلت عليه، وكان جالساً في السرداب.

فلما وقعت عليه عيني، وإذا هو على ذات الهيئة والهيبة التي رأيت فيها النبي محمداً في رؤياي!

فسلّمت عليه، فردّ علي سلامي وقال فوراً:

(يا شيخ عبد النبي، هناك مائة وعشرون توماناً، خذها وسدّد بها دينك)!

يا سبحان اللّه إنها نفس الجملة التي قالها لي رسول اللّه في الرؤيا!!!

وهنا أردت أن أنقل للسيد الشيرازي رؤياي التي رأيتها، فقال السيد: لا حاجة! وكأنه كان يعلم بها.



الحرب على الجراثيم

قبل القرن التاسع عشر قضى عدد كبير من الناس في أوروبا نتيجة إصابتهم بأمراض انتقلت إليهم بسبب ظروف المعيشة غير الصحيحة، وكثيرا ما كان العمليات الجراحية مميتة لعدم استكمال الشروط الصحية، مما كان يقود إلى الإصابة بالغرغرينا (تعفن خلايا الجسم) وتسمم الدم، وقد طورت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين طرق أفضل لمعالجة الأمراض.

الجراثيم والمرض

تمكّن أ. فان لويفنهوك عالم هولندي من مشاهدة الجراثيم (ميكروبات مثل البكتيريا) لأول مرة بمجهره ومع هذا فإنه لم يدرك أهمية هذه الجراثيم من حيث تسبيبها للأمراض.

بين لوي باستور عالم فرنسي أن الجراثيم التي تساعد في عملية التخمر يمكن القضاء عليها بالحرارة دون أن يؤثر على ذلك المذاق، وتسمى هذه العملية اليوم البسترة، وتستخدم في معالجة الحليب.

ونشر لوي باستور نظريته في الأمراض الجرثومية التي تنصّ على أن الجراثيم يمكن أن تسبب الأمراض.

التلقيح والتطعيم

حضّر إ. جنَر العالم البريطاني لأول مرة لقاحا فعالا ضد الجدري، إلا أنه لم يكن يعرف بالضبط كيف يعمل هذا اللقاح، واستنبط لوي باستور لقاحا ضد داء الكلب، وقد برهن على أن اللقاحات يمكن تحضيرها من جراثيم ضعيفة تساعد الجسم على مهاجمة المرض بصورة معتدلة، مما يثير نظام الدفاع في الجسم ويولد عند الشخص مناعة ضد المرض.

وطور العالم الفرنسي لقاحا ضد مرض السل، وأعد ج. سوك عالم أمريكي أول لقاح ضد الشلل فتك بالعديد من الناس في الخمسينات.

المطهّرات

أجرى ج. لستر العالم البريطاني أول عملية تطهير مستخدما رذاذا من حامض الكربوليك لقتل الجراثيم في الجو وعلى جسم المريض، والتطهير هو طريقة للقضاء على الجراثيم.

التعقيم

صمم س. تشاميرلاند عالم فرنسي جهازا للتعقيم، وهو صندوق معدني مغلق لتعقيم الأدوات والضمادات باستخدام بخار ضغط عال، وكان ذلك الجهاز أول أنموذج لأجهزة التعقيم، والتعقيم هو طريقة لمنع الجراثيم من الوصول إلى الجروح، وطور عالم ألماني مفهوم العلاج الكيميائي، أي استخدام الأدوية المركّبة للقضاء على جراثيم معينة في خلايا الجسم.

وحضّر العالم الألماني دواء يسمى البرونتوسيل لقتل الجراثيم المسببة للأمراض كالحمى القرمزية، وكان هذا الدواء هو الأول ضمن سلسلة من الأدوية التي تسمى عقاقير السلفا، وتعتمد هذه العقاقير في علاج عدد من الأمراض كالتهاب السحايا (مرض يصيب قشرة الدماغ).

المضادات الحيوية

أما المضاد الحيوي عبارة عن عقار يستحضر من كائنات حية (الفطريات) للقضاء على كائنات حية أخرى تسبب الأمراض كذات الرئة، وهي مركبات كيميائية ذات وزن جزئي صغير جدا يقدر بالميكروجرام ومهمتها هي قتل البكتيريا المرضة او ايقاف نموها والتمهيد للخلايا التابعة لجهاز المناعة لمهاجمة البكتيريا والقضاء عليها.

المهم هو ان مجموع ما تنفقه دول العالم في استهلاك المضادات الحيوية.. يبلغ ٢٩ مليار دولار سنويا..

وتُعَدّ المضادات الحيوية أهم مجموعة دوائية على الإطلاق .. منذ اكتشافها منتصف القرن الماضي.

والجدير بالذكر أن المضادات الحيوية فاعلة ضد البكتيريا، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للفيروسات (كالحصبة مثلا)، ولوحظ أن نوعا من الفطريات يسمى البنسيليوم يوقف انتشار البكتيريا.

أما ما يظن البعض أن المضادات الحيوية تعالج حالات الأنفلونزا وهذا مفهوم غير صحيح فالإنفلونزا مرض فيروسي وليس بكتيري فتناول المضادات الحيوية لا يساعد على علاج حالات البرد بل يضر عبر الأعراض الجانبية للمضادات الحيوية.. علاج حالات البرد هو الراحة فقط..

كما يظن البعض أن الجسم يكتسب مناعة ضد المضادات الحيوية بعد فترة من تكرار استخدامها والحقيقة أن من تكتسب المناعة هي البكتيريا وليس الجسم.. فهي - البكتيريا - تتطور لتحمي نفسها من المضادات الحيوية وليس الجسم من يرفضها..

يستخدم البعض المضاد الحيوي لفترة محدودة يوم أو يومين وهذا مفهوم غير صحيح تماما.. فالمضادات الحيوية تستخدم لفترة من ٥ إلى ٧ أيام على الأقل.. عادة.

كما ان البعض يكثر من استخدام المضادات الحيوية عامة وهذا امر خطير فللمضادات الحيوية اضرار كثيرة مثل التغير في مكونات الدم او تلف الكبد او توقف الكلية عن العمل، كما ان هذا يعرضك لمشكلة اكثر خطورة وهي انك بكثرة استخدامك للمضادات الحيوية الإعتيادية تكتسب البكتريا مناعة تؤدي الى اختيار الطبيب لمضادات حيوية من النوع المتطور مثل الجيل الثالث للسيفالوسبورين وهي ذات اعراض جانبية كثيرة وخطيرة.

المسكّنات

أنتج فهوفمان الدكتور الألماني أول تركيبة للأسبرين، ويوجد الأسبرين (حامض إسيتيل الساليسليك) في الطبيعة في بعض النباتات والأشجار، وهو يعمل على تخفيف الصداع والحمى بتخفيض درجة حرارة الجسم، كما يساعد في التخفيف من الروماتيزم من خلال تخفيف الالتهاب والورم[1].

---

(١) الموسوعة المصورة كنز المعرفة: ص٥.

صدر حديثاً

عن قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة كتاب الظاهرة الحسينية، تأليف السيد محمد علي الحلو.

فهي دراسة اجتماعية، تاريخية، سياسية، اقتصادية، الى غير ذلك من الأبعاد الحياتية، وهي دراسة ترتبط بالشعور العام لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام.

